أفونسو كروش

الكُتب التي التهمت والدي

221 مكتبة

مسكيلياني

رواية

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

الكُتبُ التي التهمت وَالدي

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة عن البرتغاليّة

Os Livros Que Devoraram O Meu Pai

Afonso Cruz

أفونسو كروش

الكتب التي التهمت والدي

حكاية فيفالْدو بونْفين العجيبة الغريبة

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

للمزيد من الكتب صفحتنا على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد



المؤلّف: أفونسو كروش

عنوان الكتاب: الكتب التي التهمت والدي

ترجمها عن البرتغاليّة: سعيد بنعبد الواحد

تدقيق وتحرير: رمزي بن رحومة

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-012-2

الطبعة العربية الأولى: 2018

Copyright © 2010 Afonso Cruz

The author is represented by Bookoffice .

Copyright © 2010 Editorial Caminho, SA.

جميع الحقوق محفوظة للناشر©



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الفهرس

***



إلى أبنائي

الفصل الأول

كُتبًا، مزيدًا من الكتب!

- فيفالْدو! فيفالْدو! فيفالْدو! فيفالدو!

كان رئيس المصلحة يصيح، لكنه كان يسمع ذلك الصوت بعيدًا هناك في الخلف، يتلاشى في الزاوية.

هكذا بدأت جدتي تسرد لي حكاية فيفالْدو بونْفين، والدي. كان يشتغل في المكتب رقم 7 بإدارة الضرائب، ويعيش في عالم مُضجر، ثقيل، مسطح، ومُمل، يعجّ بالأوراق، والوثائق وكل التعقيدات البيرواقراطية التي تُصنع من خشب الأشجار. عالم مجرد من الأدب. في تلك الفترة المشؤومة كانت أمي حبلى بي، وأنا أسبح في رحمها، أدور مثل الملابس داخل آلة الغسيل. أمّا والدي فكانت الكتب هي شغله الشاغل، (يريدُ كتبًا، مزيدًا من الكتب!)، لكنّ الحياة كان لها رأي آخر، كانت منصرفة عنه، وكان عليه أن يشتغل. إنّ الحياة، في كثير من الأحيان، لا تولي اعتبارا لما نحبه. لكن والدي كان يأخذ كتبا (كُتبًا، مزيدًا من الكتب!) إلى مصلحة الضرائب ويقرؤُها خلسة

كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ليس ذلك تصرفا لائقا، لكنّها الرغبة! فوالدي يعشق الأدب أكثر من كل شيء حتّى أنّه لطالما وضع كتابا من كتب الجيب تحت مطبوعات لتغيير الأنشطة ووثائق أخرى تحمل أسماء معروفة، ليقرأ خلسة، وهو يتظاهر بالعمل. ليس ذلك تصرفا لائقا، لكن والدي لم يكن يفكر سوى في الكتب. هذا ما حكته لي جدتي بأفكارها المليئة بتجاعيد كالتي غزت جبهتها.

لم أعرف والدي قط. فعندما ولدتُ لم يعد من أهل هذه الدنيا.

الفصل الثاني

سلاليم وأدراج

ما معنى التورية؟ هي ما نعمد إليه حين نريد أن نقول أشياء قد تجرح الشعور، ولتجنُّب ذلك نستعمل كلمات أقل حدّة. مثلاً، يمكنني أن أقول إنّ والدي لم يعد من أهل هذه الدنيا بدل أن أقول إنه مات على إثر أزمة احتقان موضعي. يبدو أن عبارة: «لم يعد من أهل هذه الدنيا» بدل «مات» تُعتبر تورية، لكنها ليست كذلك. إنها الحقيقة الموضوعية وفق ما سترون. دون أي تنميق بلاغي.

ذات مساء، مثل عدة مساءات أخرى عديدة، راح والدي يقرأ كتابًا وضعه تحت مطبوع خاص بالضريبة على الدخل حتى لا ينتبه رئيس المصلحة إلى أنه لم يكن يشتغل. في ذلك المساء، ولفرط انغماسه في القراءة وقوة تركيزه، ولج إلى داخل الكتاب. تاه في القراءة. وعندما حلّ رئيس المصلحة بمكتبه، لم يكن موجودًا فيه. كانت هناك فوق المكتب مطبوعات خاصة بالضريبة على الدخل ونسخة من جزيرة الدكتور مورو مفتوحة عند الصفحات الأخيرة. وقد قام جوليو (هذا هو اسم رئيس المصلحة) بالمناداة عليه: فيفالْدو!

فيفالْدو!، لكن والدي لم يردّ بأي جواب. ذلك أنّ الأدب قد لبسَه، فصار يعيش تلك الرواية.

تقول جدّتي إن هذا يمكن أن يقع حين نركّز حقا على ما نقرأ. في مثل تلك الحال يمكن أن نلج إلى داخل كتاب كما حدث لوالدي. إنها عملية في غاية السهولة، كإطلالنا من شرفة، إلا أنها أقل خطورة، رغم أن الأمر يتعلق بسقوط من أعلى عدة طوابق. نعم، فقراءة الأشياء يمكن أن تكون من عدة طوابق. ولقد علمتُ -مثلاً- من جدّتي أن شخصا يدعى أوريجينَس، كان يقول إن هناك قراءة أولية، سطحية، وقراءات أخرى أكثر عمقا، هي القراءات الرمزية. لن أخوض كثيرا في هذا الموضوع، ويكفي أن نعرف أن كتابًا جيّدًا له بالضرورة أكثر من قشرة واحدة، وأنّه ولا بدّ بناية من عدة طوابق. لأن الطابق الأرضي لا يليق بالأدب. إنه ملائم أكثر لنشاط البناء، وهو مريح لمن لا يُحبّ صعود الأدراج، ونافع لمن لا يقدر على ذلك، أمّا في الأدب فلا بدّ من وجود طوابق متراكمة بعضها فوق بعض. سلاليم وأدراج، حروف في الأسفل، وحروف في الأعلى.

الفصل الثالث

أحيانا يكون صوتُها مدعوكا

بالأمس احتفلتُ بعيد ميلادي الثاني عشر، ولهذا السبب بدأتْ كل هذه المغامرة. كانت الحفلة عادية، مثل كل الحفلات التي أقمتُها. جاءت الأسرة بكاملها: أبناء العم، الأعمام والعمات، بالإضافة إلى بعض الأصدقاء والجيران. حُضِّرت الكعكة، وأُنشدت أغاني التهنئة. ومضى الأمر كالمعتاد. ذابت الشموع فوق الكعكة، وغنّى الناس بشكل متنافر ألحان التهاني المُوجّهة إليّ، صفّقوا، وضحكوا مسرورين. ثمّ وجّهتُ نفخة اثني عشر ربيعا إلى أعلى الشموع فانطفأت تحت وطأة الهواء المندفع. وعلى الفور قطعت الكعكة شرائح دون رحمة. وحين حل المساء في نهاية المطاف وذهب كل الناس إلى حال سبيلهم أمرتني جدتي، بعينيها الناعستين، أن أمرّ ببيتها في اليوم الموالي. لقد تلقّيت يوم عيد ميلادي هدايا من كل الناس، إلا من جدتي. واستغربتُ الأمر لأن ذلك لم يحدث قطّ. فالجدَّانِ، حتى إن خذلتهما الذاكرة، لا ينسيان الهدايا أبدًا.

وفي اليوم الموالي، ما إن عدت من المدرسة حتّى ذهبتُ لألتقي

بجدتي. فأمرتني أن أجلس، وأشارت بحركة من يدها المتجعّدة إلى الأريكة المخططة. كنتُ دائما ما أجلس فوق تلك الخطوط، كلما زرتُها. جلست هي كذلك بتثاقلها المعهود ولباسها المزركش. مرّرتْ يديها على شعرها، هيأت صوتها، إذ أحيانا يكون واهنًا حين تجلس وحين تنتهي لتوّها من بذل مجهود ما، ثمّ عدّلت نظارتيها وشرحتْ لي، وأنا ألوك قطعة حلوى، أنني قد أصبحت رجلاً صغيرا وأنني بدأت أتحمل بعض المسؤوليات وأنّ الوقت قد حان لأعرف الحقيقة. أتت كلماتها غاصّة بالشعر الأبيض، ما جعلني أحدس أنها تنطوي على حياة عاشتها جدّتي بكل قوة. كان حديثًا جديًّا، ولذلك انتبهت لما تقوله. حدّثتني عن والدي وحكت لي قصّة ولوجه كتابًا في ذلك المساء بإدارة الضرائب، وانقطاع أخباره منذئذ (كنت أظن، إلى غاية ذلك الحين، أن مأساة يُتْمي من والدي تعود إلى مرض ألمَّ بقلبه. «مات على إثر أزمة احتقان موضعي»، هذا ما سمعتهم يقولونه باستمرار عن والدي).

يبدو أنّ والدي قد توقّع حدوث شيء من هذا القبيل، مُخمّنًا إمكان أن يسقط في تلك الهاوية من الحروف، وهو ما حدى به إلى إخفاء كتبه في عُلِّيّة بيت جدتي. فكان أن ظلّت مكتبته في انتظاري لمدة اثنتي عشرة سنة، لبثت خلالها كلّ تلك الكتب قابعة هناك فوق الرفوف. «اعطيه المفتاح حين ترين أنه أصبح قادرا على قراءة كتب عُلِّيّتي». قال والدي لجدّتي وهو يُسلّمها مفاتيح حصنه الأدبي أسبوعًا قبل أن يرحل إلى تلك العوالم من الحروف.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

سلّمتني جدتي المفاتيح بكلّ وقار. لأجد في تلك العلّية لاحقًا كل كتب والدي، بما فيها كتاب جزيرة الدكتور مورو، وهو الكتاب الذي استعمله ليلج إلى عالم الأدب. ، تلقيتُ الهدية وأنا في غاية التوتر. أخيرا، سوف أتعرّف على والدي وأقتفي أثره، سوف أجول بين كل الكلمات التي جال بينها، وقد أعثر عليه خلف جملة من الجمل، بين شخصيّات رواية من الروايات. أو ذلك ما كنتُ أظن.

الفصل الرابع

كان كل شيء يعج بالحروف

بعد أن حصلت على الإذن من جدّتي، صعدتُ السلاليم الدقيقة المؤدّية إلى العلّية وفتحت الباب. كانت يداي ترتعشان، لمعرفتي أنّ هناك بالداخل، في تلك العُلّيّة، كلّ شيء يعجّ بالحروف المتظاهرة بالموت، مع يقيني من أنّه يكفي أن نُمرّر فوقها عيوننا كي تقفز مفعمةً بالحياة. دخلتُ بتردّد وفتحت النافذة. كانت رائحة الأماكن المغلقة تفوح من العُلّيّة وقد ملأها الغبار عن آخرها، ولما تسلّل إليها الضوء غمر المكتبة كلّها بنقط صغيرة بيضاء. كان غبارًا يتسلل إلى المراهقة، غبارًا ذا اثني عشر ربيعًا، له نفس سَنِيّ.

بدت كل الكتب مُرتّبةً بعناية فوق الرفوف، واقفةً تنتظر أن تُتابعني بعيونها المركّزة في ظهر كل كتاب. بادلتُها النظرة –وأنا أغلق عينيَّ نصف إغلاق– دون أن أترك نفسي للسقوط في شراك أيٍّ من تلك العناوين. قرب النافذة وجدتُ الكرسي الذي كان يجلس عليه والدي وفوق القماش كتاب. شعرتُ بجفاف في حنجرتي وبأنّ قلبي يكاد يثبُ من مكانه لفرط الخفقان. فما كان ماثلاً أمامي هو كتاب

جزيرة الدكتور مورو. حملته كما يُحمل الشيء المقدس، وجلست على الكرسي وتأهبتُ لأتصفحه. فهل أستطيع أن أقوم بما فعله والدي وألج إلى عالم الكُتب؟

الفصل الخامس

وأخذتُ أقرأ كتابا تلو كتاب

تصفحتُ كتاب جزيرة الدكتور مورو، لكنّني سرعان ما وضعته، دون أن أقرأ ولو فقرة واحدة. كنتُ متوتّرًا جدًّا إلى درجة أنْ قرّرت تأجيل القراءة. لن يكون كتاب ويلزْ هذا هو فاتحة سلسلة قراءاتي. أدركتُ أنّ عليّ أن أبدأ رويدًا رويدًا، وأن أستهلّ قراءاتي بكتب أخرى غير ذلك الكتاب المشؤوم الذي التهم والدي. وخلال النصف الأول من تلك السنة قرأت كتابًا تلو آخر، وتعلمتُ كيف أتوه في تلك القراءات. كانت شهورًا من الإثارة الكبيرة رافقتها بعض المشاكل داخل البيت، منها أنّي صرت ألتحق بمائدة العشاء مُتأخّرًا بشكل منتظم، وهو ما كان يثير حفيظة أمي ضد تصرفي.

***

كانت المدرسة في انتظاري يوميًّا. أحضر إلى القسم بابتهاج كبير، وأدرس تلك المادة الثقيلة وأحصل على العلامات المناسبة. حتّى وإن لم يكن المجهود الذي أكرسه للدرس والتحصيل كله من باب المثابرة. صحيح أنّي كنتُ أُقدّر المعرفة، وهذا بديهي، لكن أشدّ ما

كنتُ أقدّره هو بياتريس. كانت أكثر مواد المدرسة تقلُّبا، أكثر من كلّ أنواع الرياضيات، وأكثر من أي فئة من الجمل النحويّة وأقسامها. وفي الوقت نفسه كانت أكثر أنواع الجغرافيا إدهاشا، وأحسن تربية بصرية لعينيّ. بشعرها الأسود المنساب على كتفيها انسياب عطر القهوة في الفنجان. وشفتيها الحمراوين المتفتحتين، وبشرتها ذات البياض العنيد. فضلا عن عينيها السمراوين الداكنتين حتى حين تغمضهما.

كنتُ أقطع الطريق إلى المدرسة كل يوم، دون استثناء، رفقة «بومْبو». لم يكن بومْبو هو اسمه الحقيقي، لكننا كنا نناديه كذلك، مع أنه لم يكن نحيلاً البتّة، بل ثقيلاً لدرجة يبدو معها أن كل أجزاء رواية مارسيل بروست (التي كنتُ قد مرّرتُ عينيّ فوقها لمامًا) اجتمعت في الشاب المراهق. وإمعانًا في سوء الصورة كان قصيرًا وذا شعر كثير الدهون. وفوق كلّ ذلك، وكأنّه غير كاف، كانت تفوح منه رائحة خاصة أعجزُ عن وصفها. ربما هي رائحة أثاث قديم أو رائحة العزلة (وهما رائحتان تختلطان بشكل ملحوظ).

كان كُلّما يتحدّث يضع رجلاً في وضع عمودي مقابل الرجل الأخرى، كما تفعل الفتيات في كثير من الأحيان. ويروي حكايات صينية. وعندما يقوم بذلك، تتورد وجنتاه ويغزو اللون الوردي وجهه المصفرّ. وإزاء حضوره ذاك يبدي الناس نوعين مُختلفين من ردود الفعل:

رد الفعل الأوّل: يتجنبونه.

ردّ الفعل الثاني: يسخرون منه، وأحيانا يلجؤون إلى العنف والشتم.

ويبدو أنه كان قادرًا تمامًا على تحمّل الازدراء كما العنف دون مبالاة. بيد أنني رأيته، أكثر من مرة، يبكي لوحده في المرحاض. وإذ أسأله هل كل شيء على ما يرام يقول لي «نعم»، ثم يمرّر يديه على شعره الدهني ويبتسم.

ولكنّ ابتسامته كانت حزينة.

الفصل السادس

تلك الأشياء التي تُشكلنا حقا

إنّ المكتبة متاهةٌ. وهذه ليست أول مرة أتوه في واحدة من المكتبات. فأنا وأبي نشترك في هذا الأمر. وأظن أن هذا هو ما وقع له. لقد تاه وسط الحروف، والعناوين، وضاع وسط الحكايات التي كانت تسكن رأسه. ذلك أنّنا نتشكل من الحكايات، وليس من الجينات ورموزها، ولا حتى من اللحم والجلد والعضلات والمخ. نعم، نحن نتشكل من الحكايات. وأنا على يقين من أن أبي قد تاه في ذلك العالم وليس بوسع أي أحد الآن أن يوقفه عن القراءة.

قرأت ذات مساء قضيْتُه في العُلّيّة قصّة لكاتب أرجنتيني يدعى بورخيس بخصوص متاهة هي عبارة عن صحراء. «ثمة عدة أماكن يمكن أن يتوه فيها المرء، لكن لا يوجد مكان أكثر تعقيدًا من مكتبة. بل إنّ الكتاب الواحد يمكن أن يُمثّل مكانا نضيع فيه ونتوه». كذلك حدّثت نفسي وأنا جالس في العُلّيّة وسط كل تلك الكتب.

الفصل السابع

وأخيرا، قرأتُه

كان الوقت ينقضي فقرة تلو فقرة، وذات يوم نظرتُ من جديد إلى كتاب جزيرة الدكتور مورو. وقرأتُه.

بإيجاز:

بعد غرق السفينة المسماة ليدي فين يجد إدوارد برينديك، وهو أحد المسافرين على متنها، نفسه وسط جزيرة يقوم فيها عالم يُدعى الدكتور مورو بتجارب على الحيوانات قصد جعلها بشرية، أي جعل أجسامها تشبه أجسامنا، عاملاً، من خلال بعض الإيحاءات التنويمية، على أن تصير تصرفاتها مثل تصرفات البشر. وطبعًا، لم يتم أي شيء من ذلك بشكل جيّد. فصحيح أنّ تلك الحيوانات غير عاقلة ولكنها ليست بلهاء ومن المؤكّد أنّ الطابع البشري لا يناسبها. ثم إذا افترضنا وجود كائنات حية غير إنسانية، فهي بنو البشر أنفسهم. والنتيجة أن الحيوانات المُحوَّلَة إلى بشر ظلّت تنزع إلى شرطها البدائي، أي إلى طبيعتها الحيوانية.

حين عاد إدوارد برينديك من جزيرة الدكتور مورو انزوى ولم

يعد قادرًا على التعايش مع البشر. بدأ يُخصّص معظم أوقاته للقراءة، تحيط به الكتب من كلّ جانب، زيادة على أنّه أخذ يتعاطى الكيمياء وعلم الفلك. كان يجد سلواه في النجوم. وكانت النجوم أريكة روحه. ينتهي كتاب هربرت جورج ويلْز حين يقول إدوارد بريندبك إنه قد استشار طبيبًا متخصّصًا في الأمراض العقلية، من معارف الدكتور مورو، وإنّه هو من استمع إليه وساعده.

الفصل الثامن

داخل الكتاب

جبتُ بعض شوارع لندن، مسرح أحداث كتاب ويلز، أستمتعُ بالحدائق الصغيرة المعشوشبة والبنايات المُشيّدة بالآجر. عند نهاية المساء، وبينما كنتُ أتجوّل بأحد الأحياء الهامشية قرأتُ على صفيحة معدنية ما يلي: «الدكتور زيرْكوف، متخصّص في الأمراض العقلية العميقة». فكان أن أصبتُ بالفزع! وسبب ذلك بسيط وهو أنّني سبق لي أن وجدت في كتاب **جزيرة الدكتور مورو** هوامش كُتبت بقلم الرصاص، (ذلك أنّ والدي اعتاد أن يكتب ملاحظات، ويضع خربشات على هوامش كتبه، ولم يكن هذا الكتاب استثناءً فاحتوى عديد الرسوم البيانية، والشطوب، والتعليقات) وواحد من تلك الهوامش، ويقع في الصفحة الأخيرة، جاء فيه ما يلي: الدكتور زيرْكوف. وهو الاسم نفسه الموضوع على الصفيحة المعدنية التي رأيتُها في تلك البناية. ولذا دخلتُ دون تردد.

كانت البناية كبيرة ورماديّة اللون مثل بعض الأشخاص، ذات زخرفة كلاسيكية وأعمدة أضفت عليها طابع معبد إغريقي.

دخلتُ إلى الرواق ونظرت من حولي. بدا السقف مُزيّنًا بمشهد لا أعرفه (اكتشفت فيما بعد أنه يمثّل غرام إيروس وبسيشه). وعلى يميني سيّدة تشبه خالتي بصدد الرقن على آلة وقد وضعت على عينيها نظارتين. توجهتُ نحوها، وبنبرة وقورة، حدّثتُها بأحسن لغة إنجليزية أعرفها:

- جئتُ إلى هنا لأرى الدكتور زيرْكوف. (شدّدتُ على حرف الراء حتى أمنح نفسي ذلك الطابع الغريب الذي يميز اللغات السلافية) لدي أمر في غاية الأهمية أريد أن أناقشه معه.

رمتني بنظرة من فوق نظارتيها، فبدت مثل خالتي، وقالت:

- الدكتور مشغول. إذا كنت ترغب في استشارة طبيّة، لدينا وقت ملائم بعد شهرين من الآن. أو أقلّ من ذلك.

- الأمر مستعجل وفي غاية الأهمية.

- لقد جئت دون موعد أيها الشاب. خذ موعدًا وعُد بعد شهرين، وربّما أقلّ من ذلك.

- مستحيل. اذكري له اسميْن فقط: بريينديك ومورو.

وافقتْ على الأمر. توقفتْ عن الرقن ورفعت سماعة الهاتف. وحين وضعتها، نظرت إلي بصرامة قائلة:

- يمكنك أن تدخل. عيادة الدكتور زيرْكوف في الطابق الأول، الباب الأحمر عند نهاية الممر.

الفصل التاسع

اسمي إلياس بونْفينْ، وأنا شخص مُصمم على ما يريد

كان الدكتور زيرْكوف طويل القامة، أهيف العود. وله أنف بارز ومعقوف يُغطّيه شارب أسود. وعينان ضيقتان تختبئان وراء نظارتين سوداوين.

- صباح الخير، سيدي ...؟

- اسمي إلياس بونْفينْ.

- «ماذا تريد، سيد بونْفينْ؟» ـ سألني الدكتور وهو يُمسّد شاربه بإبهامه. ثمّ أردف: «قبل كلّ شيء، أين هي قواعدي الخاصة باللياقة والأدب؟ اجلس فوق ذلك الكرسي. ليس هذا الكرسي، بل ذاك الآخر. ذلك الكرسي المخطط.

- «دكتور زيرْكوف، سأخوض معك في الموضوع مباشرة» قلتُ له بحدّة سكين صقيل. «أعلم أنك كنت تعرف الدكتور مورو وأنّ إدوارد بريندِيك بحث عنك. وأنا بحاجة لمعرفة المزيد عن هذه القضية، وأحتاج منك أن تحكي لي كل ما تعرف».

- ولأي سبب علي أن أفعل ذلك؟

- «أنا شخص مُصمم على ما يريد، دكتور زيرْكوف. ولن أخرج من هنا قبل أن أعرف الحكاية كاملة» ـ قلتُ بنبرة صارمة وأنا أغمض نصف إغماض عينيّ اللتين بدتا كأنهما قطعتين من حديد.

- «حسنا، سيد بونْفينْ، سأقول لك ما أعرف. إنك رجل تملك قدرة كبيرة على الإقناع». قال مُعلّقًا وهو يُمسّد شاربه بظفر إبهامه ثُمّ لم يلبث أن أضاف «بريندبك، إدوارد بريندبك، لقد وصل إلى هنا ذات يوم، وعلامات الاضطراب بادية عليه. روى لي حكاية غرق، غرق سفينة ليدي فين التي يقول إنّه كان على متنها، وما تبع ذلك من وصوله إلى جزيرة كان الدكتور مورو يجري فيها تجارب على الحيوانات. وإنّي لأظنّ أنّ كلّ هذا ليس سوى هذيان، ناتج عن مخيلة بريندبك المعلولة. إذ لم توجد مثل هذه الجزيرة قطّ.»

- وهل أنت متأكد من ذلك؟

- تماما. فكلّ هذه الحكاية شذوذ وهذيان. ولا يليق برجل مثلي، رجل علم، إلا أن يرفض مثل هذه الأمور. كل هذا خطأ، وهم، ومرض ذهني. مرض ذهني عميق. ما هو صحيح هو أن بريندبك جاء إلى تلك الجزيرة، وهو ما لا يعدو أن يكون مجرد حادث من صنع خياله ليخفي حقيقة صدمة ما. كان مُضربًا تمامًا. حاول أن يعيش في الريف، وأن يتعاطى مراقبة النجوم، لكنه لم يستطع التركيز. وتلك أعراض خاصة بمريض

من هذا النوع، سيد بونْفينْ. فتاه، وظهر هنا يشتكي من أنه صار يتحول إلى حيوان. لقد كان السيد إدوارد بريندیك في خضم جنونه يؤمن بنجاح تجارب الدكتور مورو. بل ويعتقد أنه كلب تحول إلى كائن بشري بفضل علم مورو لكنّه دون مرافقة العالِم يرتدّ إلى حالته الأولى، ويعود كلبًا مرة أخرى.

- وماذا فعلت، يا دكتور؟

- حجزتُه. لقد بدأ قلقه يزداد يومًا بعد يوم. فأخذ يُفزع الممرضات وعضّ واحدة منهن، بالإضافة إلى نباحه في وجوههن بانتظام.

- بأيّ طريقة؟ telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- كان ينبح، سيد بونْفينْ، ينبح كما تنبح الكلاب. يمشي على يديه وقدميه وينبح بصوت أجش. لذلك رفعت كمية الدواء الخاص به فأصبح يقضي معظم أوقاته ساكنًا، شبه نائم، وكأنه يشخر. بل إنّني غيّرت الدواء، في وقت ما، لأن الذي وصفته له في البداية كان يحدث له نتوء الشعر في بعض أطراف جسده. وهو أثر جانبي لم يسبق لي أن رأيتُه.

- «نتوء الشعر في الجسد؟» سألتُه.

- نعم، نتوء الشعر في الجسد. كان الشعر ينمو في جسده.

وضع زيرْكوف ظفر إبهامه على شاربه ليمسّده. فرفعتُ يدي نحو رأسي، من جهة صدغي الأيمن، ونظرت إلى أعلى، كمن يفكر في ما سمعه للتو، وسألته:

- وهل أستطيع أن أرى السيد بريندِيك؟

- هذا أمر مستبعد تماما.

- لقد سبق وقلتُ لك يا دكتور زيرْكوف، إنني شخص مُصمم على ما يريد. ولن أغادر هذا المكان دون أن أرى السيد بريندِيك.

- هذا مستحيل، عزيزي بونْفينْ، هذا أمر مستحيل. لأن إدوارد بريندِيك هرب وانقطعت عنا أخباره.

- وكيف هرب؟

- ذات يوم، عند الصباح، وجدنا مكانَه في الحجرة كلبًا أسود.

- هل تحوّل بريندِيك إلى كلب؟ لو أنّ الأمر كذلك فمعناه أنّه كان محقًّا!

- لا تكن غبيًّا، سيد بونْفينْ، لم يكن ذلك سوى شعوذة وخداع. لقد هرب، ولكنّي أعترف ويا للسخرية، بأنّه ترك مكانَه كلبًا لا ينتمي لأي فصيلة من فصائل الكلاب.

- وهل ما يزال الكلب هنا؟

- بكلّ تأكيد. لن نتخلّى عنه. فقد يقوم مورو بتجارب على بعض الحيوانات، ولكن اعلَمْ أني أعاملها معاملة جيّدة.

- هل يمكن أن أرى الكلب؟

- آرْغوسْ، هذا هو اسمه. وأنا من سمّاه بهذا الاسم، على اسم كلب عوليس.

توجّهنا نحو الحديقة الخلفية، فإذا بعدد لا يحصى من الناس يتجوّلون.

- هل كلّ الموجودين هنا مصابون بالجنون؟

- تماما. ومن السهل التعرف عليهم من الأقماع التي يضعونها على رؤوسهم. هل تعلم، سيد بونْفينْ، أنّه في ما مضى كانوا يضعونهم في سفينة يدعونها سفينة المجانين ويتركونها تسير في البحر على غير هدى؟ انظر إلى هذا الجدار.

قال زيرْكوف ما قال، وهو يشير إلى جدار في الرواق الذي كنّا نعبره. وعلى ذلك الجدار كانت ثمّة لوحة مُعلّقة.

- هذه لوحة للرسام الفَلَمنْدي هيرونيموس بوش، وهي تمثل السفينة المذكورة، سفينة المجانين. لقد كان أسلافنا قساةً معهم. أما اليوم، فنحن أكثر رفقًا بهم، نضع رهن إشارتهم حديقةً يتنزّهون في جنباتها مع الدعاسيق، والخنافس، والأزْق، وعدّة أصناف من الأزهار. وكما لاحظْتَ، فإن الحلزون هو أبطأ حيوان في الحديقة. حتى شجرة البلوط تلك لا تضاهيه في بُطْئِهِ.

أشار زيرْكوف إلى الشجرة. ثمّ استعمل ظفر إبهامه ليمسّد شاربه الأسود.

- لدينا ورود، وعشب من النوع الجيّد ومرضى. لا يمكن أن يكون كل شيء جنّة، أليس كذلك سيد بونْفينْ؟ فخلف

أحسن ما في الحياة من أمور ثمة دائما ممرض.

- والكلب؟

- آرْغوسْ. إنّ الكلب له اسم.

- أين هو؟

- إنه أمامك، سيد بونْفينْ. هو تلك البقعة السوداء التي تراها هناك في العشب، قرب إكليل الجبل وذلك الرجل الذي يُلوّح بيديه.

دنوتُ من الكلب: آرْغوسْ. كان كلبًا أسود كبيرًا يُحرّك ذيله. ولقد أعجبني.

- هل يمكن أن أحتفظ به، دكتور زيرْكوف؟

- هذا مستبعد تمامًا.

- أنا شخص مُصمّم على ما يريد، دكتور زيرْكوف.

الفصل العاشر

كنتُ أتأبّط اقتباسات

غادرنا العيادة، أنا وآرْغوسْ. فجأة، أخذ الكلب يجري مُتّجها نحو أسفل الشارع. جريتُ وراءه وعلامات استفهام تدور في رأسي. أين كان يتّجه بهذا الركض الجنوني؟ وفي كثير من الأحيان كان يتوقّف كي ألحق به. وفي لحظة الانتظار تلك يكتفي بالنباح، وحين أقترب منه بعد لأي يستأنف الجري. في نهاية المطاف، جرينا لساعات عديدة، أنا متأكد من ذلك. لكن كان عليّ أن أتبعه، لأنّه يريد أن يقول لي شيئا ما. برز أمامنا الريف بخضرته المعهودة، تتخلّله بعض الأشجار والشجيرات هنا وهناك. تركنا خلفنا دخان المعامل في ضواحي لندن، صعدنا تلالاً، ونزلنا وهادًا، وقطعنا قفارا إلى أن ظهر لنا بيتٌ هو تتويجُ ما بذلناه من جهد وما أتيناه من جري. كان بيتا مُشيّدا بالكامل من الآجر، صغيرا وبسيطا، يجثو مثل بقرة نائمة. وإذ جلس آرْغوسْ عند عتبة الباب مُوجّها نباحه نحو الممر دنوتُ من المدخل المزركش باللبلاب وقرعتُ الجرس. ففتحت الباب سيدة بادرتني بالسؤال:

- ماذا تريد؟

- فعلا، أنا لا أعرف على وجه الدقة ما أريده، لكن حسب رأيي مادام هذا الكلب قد قادني إلى هنا، فلا بدّ أنّ هناك سببًا. هل تعرفين هذا الكلب، يا سيدتي؟

- لم أره قط.

لكن آرْغوسْ كان له رأي آخر. فطفق ينبح بفظاظة. وعندما همّت السيدة بغلق الباب اعترضته بقدمي لأمنعها من ذلك. أغمضتُ عينيّ نصف إغماض جعل نظرتي تبدو أكثر صرامة، بتلك العينين الشبيهتين بقطعتين حديديتين.

- بريندِيك. هل يعني لك هذا الاسم شيئًا ما؟

حين سمعت السيدة ذلك، فتحت الباب من جديد وسألتني.

- هل تعرف إدوارد بريندِيك؟

- نوعا ما. قرأتُ عنه وأظن أن والدي كان يعرفه جيدا.

- ادخل. لكن ليبقَ الكلب في الشارع.

جعلتُ آرْغوسْ يجلس وسط نُباحه فوافقتْ على ذلك دون اقتناع. وسِرتُ وراءها، ومن ثَمَّ قدّمت لي شايًا وحلوى جافّة وكرسيًّا أجلس عليه.

- «هذا الكرسي له خطوط جميلة»- قلتُ مُعلّقًا وأنا أجلس واضعًا قطعة حلوى في فمي. «اسمي إلياس بونْفينْ. إذا كنتِ

تعرفين السيد بريندِيك، يا سيدتي، فأخبريني بما تعرفين».

- حسنا، عزيزي سيد بونْفينْ، لست أعرف الكثير. كان السيد بريندِيك يسكن هناك.

قالت ذلك وأشارت إلى الجهة الأخرى من الشارع، حيث ينتصب بيت يشبه بيتها تمامًا مُعانقًا عنان السماء.

- لقد كان رجلاً غريبًا تُسيطر عليه هواجس شاذّة. وكنتُ أخشاه بعض الشيء. ذلك أنّه يرتدي السواد باستمرار، زد عليه أنّني ذات مرة، على ما أظنّ ولست متأكدة من ذلك، سمعته ينبح. لذا أنا لا أعرف عنه إلاّ القليل، والقليل جدًّا. فلطالما حاولت أن أتحاشاه.

- «هذا كل ما لديك لتقوليه لي؟» سألتُها وأنا ألوك قطعة الحلوى الجافة.

- حسنا، في الشهور الأخيرة التي قضّاها بريندِيك في ذلك البيت بدأ يفقد البصر، ولذلك تعاقد مع رجل ليقرأ له، قارئٍ بصوت مرتفع، مُمضيًا المساء في قراءة الكتب.

- من؟

- القارئ بصوت مرتفع.

- وماذا يعني هذا؟

- إنه شخص يقرأ للآخرين.

- وماذا كان اسم هذا الشخص؟

- كان شخصا غريبًا، يكاد يُماثل بريندیك في غرابته. منعزلاً، قليل الكلام ويتأبط الكتب باستمرار. وكلّما نطق بكلام اقتبسه من أحد الكتّاب. أذكر بالخصوص أنه تحدث ذات مرة عن شخص يدعى ستيفنسون. يومها بدا مُتحمّسًا، وكان يلوّح كثيرا بيديه.

- وماذا كان اسم ذلك الشخص الذي يتأبط الاقتباسات؟

- فيفالْدو بونْفينْ. غريب، لقد انتبهتُ للتوّ يا سيّدي إلى أن اسمك العائلي يُماثل اسمه. إن الحياة تعجّ بالمصادفات، أليس كذلك، سيد بونْفينْ؟

- نعم، الحياة تعج بالمصادفات ـ قلتُ موافقًا وأنا أفكّر مبتهجًا: إن القارئ الذي تعاقد معه إدوارد بريندیك هو والدي؟ لقد كان والدي قارئًا بصوت مرتفع.

الفصل الحادي عشر

أفكاري لم تغادر البيت

تناولتُ وجبة الفطور مع أمي. أكلتُ خبزًا مُحمّصًا وشربت شوكولاته سائلة. لقد جعلت رائحة قهوة أمي المطبخ يسبح في المُتعة. فكانت بمثابة غطاء الهواء. نظرت إلى أمي وهي تحمل الفنجان إلى فمها، وتغمس الخبز المحمص في القهوة. فبدت لي حركاتها شبه الخافتة وكأنها فقرات قرأتُها عند تولستوي.

نهضتُ والخبز ما يزال في فمي وذهبتُ إلى المدرسة، لكن أفكاري لم تغادر البيت. ظلّت هناك في العُلّيّة، في مكتبة والدي. وبعد أن مثُلَ جسدي في حجرة الدرس زمنًا التحق بفكري هناك مع حلول المساء. قرعنا معا جرس بيت جدتي. جاءت لاستقبالي مغمورة بالتجاعيد فطبعت قُبلة على وجهها المتجعّد ثم صعدت السلاليم مهرولاً. سحبتُ المفتاح من جيبي ودخلت إلى المكتبة.

كان ذلك الضوء الغريب يلحس العلّيّة بكاملها، تمامًا كما ألحس أنا البوظة. مرَّرتُ عينيّ على الرفوف، ماسحًا بها الأسماء المطبوعة هناك:

SAINT-EXUPÉRRY
BLAKE
ROSS MACDONALD
DINIS MACHADO
STRINDBERG
RILKE
WILDE
Calvino
Meyrink
BRONTË
VOLTAIRE

VOLTAIRE
Poe
PESSOA
CHANDLER
Chesterton
HUGO
HESSE
Homero
PIRANDELLO
MANN
Papini
BORGES

Steinbeck
DOSTOIEVSKI
TOLSTOI
Proust
Kafka
Gorki
Gogol
WELLS
Austen
CERVANTES
DANTE

Huxley
EÇA
Bradbury
PERETZ
Golding
MEYRINK
KIPLING
STENDHAL
VERNE
HEINLEIN
Musil
Assis

Goethe
Hammett
KAZANTZAKIS
Rabelais
Diderot
Shakespeare
Lem
Hemingway
ORWELL
MELVILLE

إنّها قائمة طويلة تكاد لا تنتهي، لكن من كنتُ أبحث عنه هو ستيفنسون. أخذتُ كتابين من كتبه: **جزيرة الكنز ودكتور جيكل ومستر هايد**. كان هناك كتاب آخر حول شخص يُدعى فْلوريزيل، أمير بوهيميا، لكنني قررتُ أن أتركه لما بعد. تصفحت الكتابين بحثا عن تعليقات على الهامش. وإذ لم أجد أي تعليق بدأتُ بقراءة **جزيرة الكنز**، لأن العنوان بدا لي مثيرًا. قرأت بسهولة حتى ساعة العشاء،

وأنا جالس على الكرسي الذي كان ملكًا لوالدي. التهمت الكتاب بالكامل، وبدأت كتابا آخر، وحينئذ نادت علي جدتي.

في البداية كان أقرب إلى الهمس ولم أكن متأكّدا من أنّه صوت، لكن بعد ذلك ازدادت حدته حتى اخترق مسامعي، دون إذن:

- إلياس! إلياس! **إلياس! إلياس!**

رفعتُ رأسي فسمعتُ أحدا يقول من أسفل السلاليم:

- لقد حان موعد العشاء. ومن المؤكّد أن أمك غاضبة.

ودَّعتُ جدتي بقبلة صادقة (وقُبل المجاملة نادرًا ما تكون صادقة) وهرعتُ إلى البيت. وجدتُ والدةً تغلي وعشاءً باردًا. كانت واقفة قرب البطاطس الباردة، وسرعان ما انهالت عليّ بتقريع مطوّل، عسكريّ وسلطويّ، تتخلّله سلسلة من التهديدات الموجّهة إلى أنشطتي الأدبية ونداءات تستحثُّ رشدي. لم تَصِحْ، ولم تستشهد بدوستويوفسكي أو بأيّ كاتب روسي آخر، لكنها نسفتني بكلمات عميقة، من تلك التي تبدو كأنها أشواك أكل. لم أرتعب، ومع ذلك وعدتُها: «لن يتكرر ذلك، لن يتكرر» قلتُ.

لكن ذلك سرعان ما تكرر في اليوم الموالي، وهو ما نلتُ على إثره عقوبةً لمدّة أسبوع. مُنعتُ فيه من الذهاب إلى العلّية.

الفصل الثاني عشر

ومن ذا الذي لا يُحبها؟

ظلت بياتريس جميلة، بابتسامتها المرسومة بخط اليد (لم تكن ابتسامة مصنوعة كتلك التي تظهر على شاشات التلفزة)، وكان انشغالي بها يخفي الألم الفظيع الذي أشعر به لعدم تمكني من الجلوس في العلّيّة رفقة أحسن الأدباء على مر العصور، بحثًا عن والدي.

كان بومْبو كلما رآها يطقطق لسانه ويغتنم الفرصة ليروي حكايةً صينيّةً، مثل حكاية ذلك الإمبراطور الذي أحبّ البطّ البري حتّى أصبح لكلّ الناس، في نظره، عنق غريب الشكل، مفرط في الكبر. فإذا ما انتهى من حكايته طقطق لسانه ومرّر يده على شعره.

وفي لحظة حميمة جدًّا، حكى لي أنه يحبّها.

– أحبُّ بياتريس.

– ومن ذا الذي لا يُحبها؟

– لست أدري. هي أيضًا، تبدو لي شخصًا وحيدًا.

– لا تقل حماقات، يا بومْبو. إنها دائمًا محاطة بالناس.

- وماذا بعد؟ هذه هي أحسن طريقة للشعور بالوحدة.

-لا تقل حماقات، يا بومْبو.

الفصل الثالث عشر

كأس شاي مع السيد ستيفينسون

بعد أسبوع وجدتُني مرّة أخرى جالسًا رفقة السيد ستيفنسون. ومع أنه كاتب كبير الحجم فقد اتّسع لنا كرسيّ والدي بما يكفي. احتسيتُ معه كأس شاي، وأنا أنظر إليه، عيناي في عينيه، من خلال الغلاف: **قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة**، كتاب يُقرأ بحروف جليلة، تنتمي إلى قرون خلت. تصفّحتُه، وتأكّدت من عدد الصفحات، ثمّ نظرت إلى الظَهر وإلى السعر على صفحة الغلاف الخلفية، وهو سعر قديم جدًا (وكان زهيدا للغاية)، ونفختُ لأنفض شيئا من الغبار وشرعت أقرأ: «كان مستر آترسون، المحامي، رجلاً متجهّم الملامح، لم يستضئ مُحيّاه بابتسامة قط». بعد ذلك، تهتُ في تلك الحكاية التي تتحدث عن رجل يتناول جرعة معينة، تُؤدّي إلى وجود أنا آخر خالٍ من عذاب ضمير، وقادر على ارتكاب الشر دون أن يحرمه ذلك من النوم، وعن جانب من الشخصيّة متحرر كليا من الضمير الأخلاقي، واسمه هايد. وهو في اللغة الإنجليزية، مماثل صوتي لفعل «أخفى». إنه الجزء المظلم في كل واحد منا، ذلك أنّنا

جميعا لدينا هذا الجانب الشرير؛ حتى أنا، رغم أنني إنسان طيب، لدي هذا الجانب، وهو ما سيتأكّد لاحقًا. ليظهر إلى الوجود ذلك الجانب الشرير منّي بكل ما يميزه من ظلام. وقد انكشف ذلك الجانب مرّة بسبب شجار أنا على أتمّ الاستعداد لرواية تفاصيله. لكنّ ذلك سيكون في فرصة أخرى سانحة، وفي الوقت المناسب.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

الفصل الرابع عشر

ثقل الأشخاص

في اليوم الموالي، وتحديدًا في الفترة الفاصلة بين درس الرياضيات ودرس الرسم، استجمعتُ ما يكفي من الشجاعة لأُكلِّم بياتريس. وكان الدافع من وراء قيامي بذلك هو أنني وضعتُ عينيّ على كتاب يسمى **الكوميديا الإلهية**. وفيه، يقوم شخص يدعى دانتي (وهو المؤلِّف أيضًا) برحلة إلى الجحيم، بل وإلى المطهر أيضًا وحتّى إلى الجنة. وقد حدثت هذه الرحلة في عز العصور الوسطى، يوم كان هذا الصنف من السياحة شائعًا نوعًا ما. وكان دليلُ دانتي إلى تلك العوالم أوّل الأمر هو فرجيل (شاعر لاتيني ووثني) وبعد ذلك سيدة اسمها بياتريس. حسنا، إن التطابق في الأسماء هو الذي شجّعني على الدخول في حوار مع بياتريس لا سيّما أنّي كنتُ أريد أن أكلّمها.

- «مرحبا». قلتُ.

بعدها صمتٌّ بشكل فظيع، يُذكر بصمت الجحيم. ولم أقدر على الكلام.

نظرتْ إليّ كما لو أنّي أبله. وقد حاولتُ أن أفسّر ذلك التعجب

وأشرحه، لكنّي كنت متوترا. ولذلك أدارت لي ظهرها وتابعت سيرها. فظللتُ هناك أرتجف.

إذ جرت الأمور بشكل سيء التجأت إلى بومْبو فأتحفني بحكاية صينية كي يفرّج عن روحي. ولكنّ ذلك لم يُحدث فيّ أثرًا كبيرًا، وبعد لحظات، قبعنا هناك في المنتزه، صامتين حتّى قال.

- أنت أيضا تحبّها، أليس كذلك؟

- ومن ذا الذي لا يحبها، يا بومْبو؟

لم أكن أعرف أنني أحبها فحسب بل أعرف أيضًا أنها تحبّني، فرغم تلك الخدعة الجهنمية. لطالما تبادلنا النظرات. وحين نقوم بذلك، ترتجف عيناي وتبادلني هي النظرة بنصف ابتسامة على مُحياها. كنت أرى ذلك بكل وضوح. لم يحدث ذلك بانتظام، ولكنّه كان يحدث بوتيرة كافية لأن أنتبه إليه.

- أنا أيضًا أحبّها، يا إلياس. وبما أنك أعز صديق لي، قل لي بصراحة: هل أملك أدنى إمكانية للظفر بحبها؟

- «طبعا» - كذبتُ (بصراحة) كي لا أجرح شعوره، وهو الذي يفوق وزنه كثيرا من الأدب الروسي. إنّ شخصًا بمثل ضخامته لا يملك غير حظوظ قليلة للظفر بحبّ مراهقة غارقة في قصص غرامية ناجحة.

- «أعرف أنني أبالغ نوعا ما» قال بومْبو. ثمّ استطرد «لكني أشعر، أحيانًا، بأنّها تنظر إليّ، وحينئذ، لا أستطيع أن أقاوم ثقل

عينيها فأحوّل نظراتي عنها بنصف ابتسامة».

لم أخيّب أمله. تركته يتابع العيش في ذلك الوهم المستحيل:

- أنا على يقين من أنها لا تعير اهتماما لوزن الناس. إنها فتاة ذكيّة، وقادرة على رؤية ما وراء المظاهر. مكتبة الرمحي أحمد

- هو ذا بالضبط. إلياس بونْفينْ، هو هذا تمامًا! على كلّ حال، يمكن أن أكون سمينًا نوعًا ما، ولكنّي وسيم.

قال ذلك وهو يمرّر يده على الشعر الدهني فوق رأسه.

الفصل الخامس عشر

إنسان يكاد يكون حيوانا

قبل متابعة قراءة كتاب ستيفنسون، ذلك المسمى قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة تناولتُ وجبة خفيفة. كانت جدتي تنتظرني بحلوياتها الجافة. تعجبني طريقة تحركها البطيئة حتّى أنّي دائما ما أنظر مشدوها إلى حركاتها المضبوطة بعناية. وجلدها الأملس المتجعّد كقميص ينتظر الكيّ.

لم تكن تسأل قط عن قراءاتي، لكني كنتُ أعرف، من بريق عينيها، أن ذلك يُحرّك مشاعرها. طفقت ألوك حلويّاتها الجافة بهدوئي البريطاني. وما إن انتهيتُ من تناول الوجبة الخفيفة حتّى صعدت سلاليم العُلّيّة، وجلست على الكرسي.

***

ما إن فتحتُ كتاب ستيفنسون حتى سمعت نباح السيد برينديك (أو آزغوسْ كما كان الدكتور زيزكوف يُسميه). جاء مهرولا نحوي مُحرّكًا ذيله ذات اليمين وذات الشمال، وهو لا يكاد يكفّ عن النباح. داعبتُه فلطّخني، ثم عانقتُه فلطّخني مرة أخرى.

كان لي حديث مُطوّل مع السيد هايد. بدا لي شخصًا جديرًا بأن أكون صديقًا له، لكنه شبه متوحّش. إنّ الوصف الذي يقدّمه عنه ستيفنسون يناسب الشَّعر الذي يغزو وجهه، ويليق بهيئته المحدودبة، شبه الحيوانية. لقد كان هو بدوره أشبه بنتاجٍ لتجربة من تجارب الدكتور مورو. أي أنّه إنسان يكاد يكون حيوانًا.

- إنني إنسان خاص، يا عزيزي بونْفين. إنسان لم يُطرد قطّ من الجنّة.

- من الجنة؟

- نعم. هل تعرف الأسطورة التوراتية؟ هناك حديث في السفرين الأول والثاني من التوراة عن جنة كان يعيش فيها زوجان خلقهما الرب. ولم يكن لهذين الزوجين أي فكرة عن الخير والشر. لكنهما ذات يوم، أو قُلْ ذات يوم مشؤوم، أكلا الثمرة.

- أعرف، إنّها التفاحة.

- ليس كذلك تماما، عزيزي بونْفينْ. فالتوراة تقول إنها ثمرة دون مزيد من التوضيح. وثمّة حكاية عربيّة، مثلاً، تعتقد أن هذه الثمرة كانت قمحًا. وكثير من الناس بيننا يعتقدون أنها تفاحة، ولكن ما ذلك إلاّ أسطورة لاحقة. ولنعد إلى موضوعنا: أكل الزوجان الثمرة التي جعلتهما يدركان معرفة الشر والخير. ولاحظ، عزيزي بونْفينْ، إنّ هذا ينطبق علينا جميعًا: نولد خالصين، دون أيّ فكرة عن الخير والشر، وشيئا فشيئا نتعلّم كيف نُميّز بين هذا وذاك. وعلى سبيل النكتة، سأذكر لك جملة

قالها الشاعر والفنان البرتغالي أَلْمادا نيغْريروشْ: «نولد جميعا أحرارًا، لكنّنا نموت متسمّمين». في البداية، تكون الأشياء كما هي. بعد ذلك، تكتسب مميّزات لا تُرى بالعين المُجرّدة. خذ لك مثلاً، ذلك الكرسيّ الذي تجلس عليه، ذلك الكرسي المُخطّط، لنا أن نتّفق جميعًا على أنّه كرسيّ خشبيّ مُغطّى بقماش مزركش. إذ أنّ ذلك أمر يُرى بسهولة، لكن هل نستطيع أن نقول إنه كرسي طيّب أو شرير؟ إنّ هذا الأمر لا يدرك بالحواس أو لنقل ما يلي: إن الإنسان له حواس أخرى غير الحواس الخمس المعروفة (البصر، والشم، والذوق، والسمع، واللمس). ولذلك علينا أن نضيف إليها الوعي الأخلاقي، أي التعرف على الخير والشر في ما نفعله وفي ما نُحسّ به. حسنا، عزيزي بونْفينْ، إنّني أعيش في الجنة قبل أن يأكل الزوجان تلك التفاحة.

- ألم تكن قمحا؟

- نعم، حسب حكاية عربية. لكن ما يهم، عزيزي بونْفينْ، أنني أعيش في الجنة ولم أُطرد منها قط. أنا لا أميّز الخير من الشر في الأشياء، لكني أراها كما هي.

- مثل الأعمى الذي لا يرى ألوان خطوط هذا الكرسي؟

- تمامًا.

- وكلّ هذا لأنك لم تأكل فاكهة؟

- الفاكهة رمز، لا ينبغي أن ننظر إليها حرفيًّا. لكن في الحقيقة، ومن باب التطيُّر، أنا أتجنب تماما أكل أي فاكهة. كما أتفادى

أكل لحم البقر. ولذلك كلما رأيتُ شريحة لحم بقر لا أستطيع أن أميّز بين الخير والشر القديمين. أفهمتَ؟ بين الخير والشر؟ هاهاهاها!

- كل هذا جميل جدا، سيد هايد، ليتني أستطيع أن أزهد في كل الفواكه، باستثناء الفراولة، لكن ما جئتُ إلى هنا من أجله هو أن أعرف أخبار والدي.

- ما اسمه؟

- بونْفينْ، فيفالْدو بونْفينْ.

- آه! عجيبة هي دورة الحياة وعجيب عدم انتباهنا للمصادفات. إن اسمك «بونْفينْ»، كان من المفترض أن يحرك الاسم ذكرياتي، وأن أربطه بوالدك. لقد عرفته، بالفعل.

- إلياس! إلياس! **إلياس! إلياس!**

سمعتُ صوتًا داخل رأسي، فخرجتُ من ذلك الكتاب، بصعوبة، لألتحق بمائدة العشاء.

الفصل السادس عشر

من الأفضل انتظار مناسبة أخرى

في اليوم الموالي، عدُت لأنغمس في قراءة الكتاب نفسه. حذرتني جدتي بصوت بدا كأنه فراشة تغادر المكان:

- لا تنس وقت العشاء.

***

كنتُ حينئذ منهمكًا في قراءة الفصول الأخيرة. يومها كان السيد هايد لا يُطاق، بالغ في شره، فخيّرت انتظار مناسبة أخرى. بدأ بانتقاد السيد برينديك، الكلب، ومرافقته لي في روايات لا تمت إليه بصلة، مُقرًّا بأنه يمْقت الكلاب وكل أصدقاء بني البشر. بل لقد قال إنه لا يعرف شيئا أغبى من الحب غير المشروط، من قبيل حب الكلاب وحب ذينك العاشقين اللذين خلدهما شكسبير. ثم أضاف: «هل ثمة أكثر غباوة من حبّنا كائنًا بشريا؟

نبح السيد برينديك بعض الشتائم فأشهر السيد هايد عصاه العصبية. وبقيا هناك متوتّرين، ينظر أحدهما إلى الآخر، دون أن يعرفا جيدًا من منهما الحيوان ومن الإنسان. أظن أن فصلاً أخيرًا

بعنوان انتصار الخنازير، من مُؤَلَّفٍ لكاتب يُدعى أورويل تناسب تمامًا هذه الوضعية: كان ينظران أحدهما إلى الآخر، فلا يجدان فرقًا كبيرًا بين الحيوان والإنسان. توقّفت عند ذلك المشهد الذي بدا أنه يتهيأ ليكون عنيفا للغاية. ودّعتُ السيد هايد، وداعبت شعر السيد بريندبك وخرجتُ من ذلك الكتاب. قضيت بقيّة المساء ألعب الكرة مع صديقي بومْبو، وفي طريقي إلى البيت حكيتُ له عن أسفاري داخل الكتب. فقال لي إنني أقرأ الحكايات المختبئة في المساحات البيضاء من الصفحات، وبين حروف الكتب، وفي الفضاءات بين الكلمات. إنها قواعد مبنيّة على الخيال.

«سأروي لك حكاية صينية ابتكرتُها للتو». أضاف.

***

حكاية السَّجان و لاوْتسي

ذات يوم، ملّ لاوْتسي من بني البشر لأنهم لا يصغون إليه وقرّر أن يترك الصين خلفه، وكأنّ المرء يستطيع أن يترك الصين وراءه. وحين رأى حارسُ الحدود أن السيد السابق يغادر إمبراطورية الوسط، أي الصين، منعه من ذلك، وأخذه إلى بيته.

- «قدِّمي له شايا، يا امرأة» - قال موجّها الكلام إلى زوجته.

بعد ذلك، سجنه في غرفة كانت من قبل خاصّة بابنه.

وحين حضر الشاي تردّد. «تُرى هل يشرب لاوْتسي الشاي؟ يقولون إنه يتغذى على الندى».

- سيدي، إنني في حيرة من أمري بخصوص مأكلك ومشربك. ماذا لو أخبرتني؟ هل لي أن أقدّم لك شايا؟

- «الشاي، هذا جيّد» - قال العجوز لى طريقة أهل الشرق.

- لتعرفْ، وأنا آسف على أن أشدّد على هذا الأمر، أنّك لن تخرج من هنا إلا عندما تُدوّن كل تعاليمك. لن تترك الصين خاليةً تمامًا. اعتبرْني بمثابة سور عظيم يمنع حكمتك من الهروب. لقد جلبتُ ورقًا -ياله من اختراع عظيم!- وقلمًا، ومدادًا وأمرًا بمباشرة الكتابة.

أخذ العجوز الاختراع العظيم، رفع القلم، غمسه في المداد، ثم وضعه جانبًا. كان جالسا على الأرض ينظر إلى حائط من الخيزران والتراب ولم يلبث أن قال:

- «لستُ أدري من أين أبدأ».

- ألا تدري من أين تبدأ؟ هل تريدني أن أضع لك رسمًا؟ دعك من اللف والدوران أيها الحكيم؟ أمسك بكل حكمتك ودوّنها هنا بكل الحروف التي تتكوّن منها.

- «لستُ أدري من أين أبدأ». كرّر الشيخ مُلحًّا.

حكّ تشانغ رأسه.

- لماذا لا تبدأ بهذا الشكل، مثلا، فتقول إنّ الطاوية هي الطريق؟

- هذا لو أنني أُجيد ذلك.

- هو ذلك، هو ذلك تمامًا. يمكنك أيها السيد الحكيم أن تبدأ بأن تقول إن الطاوية التي يمكن التعبير عنها بالكلام ليست هي الطاوية الحقيقة. ما رأيك؟ هل ترى هذا جيّدًا؟ الطاوية التي يمكن التلفظ بها ليست هي الطاوية الحقيقة. هيّا، اكتُب هذا ودوّنه على الورق.

وبصعوبة، كتب الحكيم ما أمره حارس الحدود بكتابته. ولعدة شهور، ظل يكتب ما يمليه عليه. وعندما انتهى من ذلك سأل:

- هل يمكنني أن أذهب الآن، سيد تْشونْغ المحترم؟

- تشانْغ.

- هو كذلك فعلاً. لم أكن قطّ جيّدًا في حفظ الأسماء الصينية عن ظهر قلب.

- يمكنك أن تذهب. لقد تركت وراءك هذا الكتاب الرائع، وبين دفتيه كل حكمتك. ومن ثَمَّ لم نعد بحاجة إليك.

ثم غادر لاوْتْسي ذلك الكوخ وهو يفكر: «إن العالم ليس بحاجة إلى لاوْتْسيِّين من أمثالي. بل بحاجة إلى لاوْتْسيِّين صامتين». ومن يومها لم يعد قط إلى الصين.

الفصل السابع عشر

ضربة عصا على الناحرة

في اليوم الموالي، جلستُ على الكرسي المخطّط وأنا مركّز تماما. كان هايد، يومئذ، في غاية اللطف. تجاهل حضور بريينديك ـ أمّا بريينديك نفسه فظلّ على مسافة آمنة، يحك جسمه ويلحس أجزاء منه بما لا يليق بالأشخاص المحترمين. اغتنمت ابتهاج هايد وحسن مزاجه وأنا في غاية التركيز.

- «حدثني عن والدي». قلت له بعزم ثابت وعيناي تبدوان كأنّهما قطعتان من حديد.
- إنّ والدك، يا صديقي بونْفينْ، جاء عندي وهو يُضمر أسوأ النوايا. وإذ لم يرقني موقفه عبّرتُ له عن ذلك بضربة عصا على الناحرة.
- هل ضربت والدي؟
- نعم، واستمتعتُ بضربه. أذكر أنّي كنتُ أقهقه عاليًا بينما هو يئن ويتعصّر ممسكًا بكتفيّ.

وضحك هايد كما ضحك حين ضرب والدي. فثارت حفيظتي. وفي الأثناء أطلق السيد بريندليك نباحًا.

- لقد اتهمني والدك بأشياء لم أفعلها. صحيح أنه كان بإمكاني أن أقوم بها، لكن كل ذلك أغضبني، فأخذت العصا «وبفّ!» ضربتُ ناحرة ذلك الشقي.

- والدي إنسان طيب.

- طيب، شرير، كل هذا نسبي. تلك تمييزات لا أستطيع أن أقوم بها.

- وماذا قال والدي؟

- اتهمني بأنني أقتل شخصيات روائية. كأن التلفزة لا تقوم بذلك، بل وأكثر مني.

- أوليس ذلك صحيحا؟

- بل هو كذب محض. حتى ستيفنسون، ذلك الجاهل، افترى عليّ كذبًا. أنا لم أقتل أحدًا قطّ. ليس شفقة منّي (فأنا لا أعرف ما هي الشفقة) بل لأنني لا أجني أي متعة من القتل. ثمّ إنّ وقتَ ذلك لم يحن بعد. وقد يحدث يومًا ما، ربّما. أمّا الأكيد فهو أنّ والدك انتبه إلى موت عدة شخصيات روائية، وخصوصا في الكتب الكلاسيكية، دون حياء. فخمّن، على ضوء ذلك، أنني الوحيد القادر على قتل كل هؤلاء الناس دون أدنى شعور بالندم. غير أنّه كان مخطئًا تمامًا، وقد أدرك

خطأه حين انتبه إلى ناحرته اليسرى. لكن لا يهمّ، هل سمعتَ عن راسكولنيكوف؟

- لا أعرفه. هل هو روسي؟

- من المحتمل ذلك.

- ومن يكون راسفول راسنوكيلوف راسكولكينوف هذا؟

- راسكولنيكوف.

- وما علاقة هذا الروسي بوالدي؟

- إنك تستبق أحداث الحكاية، سيد بونْفين، على مهلك.

- عفوا. تابعْ، من فضلك.

- بعد أن اتهمني والدك بشكل صبياني، وبعد أن نال، بكل استحقاق، ضربة عصا مُوفّقة، حدثني عمّا يشغله، وعن الجرائم التي كان يظن أنها تُرتكب هناك في تلك الروايات. وسألني إن كنتُ أعرف شيئًا عن الأمر وإذ أجبتُه بالنفي ألح عليّ أن أحاول التذكّر. «أي شيء، أي تفاصيل صغيرة. حاول أن تتذكّر، سيد هايد»، قال لي والدك. فحاولتُ أن أفعل، لكن محاولتي ذهبت سدى. عندها، شرحتُ له أن ذاكرتي ليست قويّة كما ينبغي.

- وماذا فعل والدي؟

- هزّ كتفيه وأسرّ لي أنه لا يعرف أي وجهة يقصد ولا بأي

شيء يتشبث كي يستمر في تحرّياته. لذلك عاد وتوسل إليّ أن أساعده. ولأشرح لوالدك كيف كانت ذاكرتي تشتغل بشكل سيّئ، حكيتُ له الحادث الذي وقع لي قبل بضعة أيام: بينما كنتُ جالسا كعادتي في حانة صغيرة عند زاوية الشارع، قرب بيتي، اقترب مني شخص في يده علبتا جُعّة وقدم لي إحداهما، لكنّي أمسكت بالاثنتين وشربتهما بكل هدوء، وهو يراقبني. وبعد أن فرغت من شربهما، ومسحتُ فمي بكمّ المعطف (إذ أنّي لا أخلع المعطف أبدًا) قدّم لي الرجل نفسه أخيرًا وباح بما أتى لأجله طالبًا منّي أن أقدم له الوصفة الكيماوية التي وضعها دكتور جيكيل المعتوه ليحوّلني إلى هذه الأعجوبة الماثلة أمامك الآن. ولمّا أجبتُه بأنّني لا أعرف أي وصفة تُذكر قال إنّه لا يصدقني، وإنّ ذلك مستحيل. فضحكتُ في وجهه وأكدت له مرة أخرى أنّني حتّى لو عرفت في وقت ما تلك الوصفة، فلا شكّ في أنّي نسيتها تمامًا. وشرحتُ له الأمر قائلاً: «إنّ ذاكرتي ليست قوية كما ينبغي». ثمّ سألتُه عن غرضه من ذلك الإكسير فقال إنه يريد أن يكون مثلي. ومن ذا الذي يستطيع أن يلومه على ذلك؟

بعد أن تلفّظ السيد هايد بسؤاله خلع قبعته، وحاول عبثا أن يُسوّي ظهره المقوس بشكل فظيع، ثم مرر يده الشّعْراء على شعر رأسه المتناثر.

– «هل ساعدت هذه الحكاية والدي؟» سألتُه.

- لقد أُصيب بهستيريا. فصار يُكثر من التلويح بيديه، فاقدا السيطرة على نفسه. أظن أن الحادث الذي حكيتُه لك للتو، مع أنّه مزعج لذاكرتي، هو الذي وضعه على الطريق نحو القاتل. يومها سألني والدك، وهو ما يزال في حالة من الهيجان، ولا يكاد يستطيع الكلام، هل أتذكّر اسم ذلك الرجل، فقلتُ له إنني لا أملك ذاكرة كلب. ولكنّه ألحّ علي بالسؤال فطفا اسم من الأسماء إلى ذاكرتي. وما إن نطقتُ به حتّى شحب وجه والدك. وبما أنني ظننتُه لم يسمعني جيدا، كررتُ:

«راسكولنيكوف»

قلتُ بصوت واضح، وحروف كبيرة فوق صفحة بيضاء. وحين سمع والدك هذا الاسم ثانية، أدار لي ظهره، وذهب إلى حال سبيله. بل إنه حتّى لم يودّعني.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الثامن عشر

إنجازاتي لا تقبل الشك

قامت جدتي بتحضير حلويات جافة. وكالعادة، ملأتُ بها فمي ولُكتُها بمتعة. شربتُ كأس حليب كي أستعيد رطوبة فمي وتأهبتُ للانطلاق مهرولا نحو العُلّية. ولكنّ جدّتي قاطعت ما كنت أنوي القيام به:

- ألا ترى أنك تبالغ في القراءة؟ لقد تلقّيت بعض الشكاوى من أمك ...

- أنا موفٍ بالتزاماتي. وعلاماتي المدرسيّة جيدة. وإنجازاتي لا تقبل الشك. وكل التذمّرات إنّما تحتدّ مع موعد العشاء. أعترف أنني قد وصلتُ متأخرًا نوعًا ما عن الوقت المعتاد، بيد أن المرء لا يعيش على الخبز وحده.

- لكن عليك أن تحضر في الوقت المحدّد لوجبة الأكل. فهذا من الأمور التي تميّز، كأفضل ما يكون، الإنسان عن الحيوان غير المهذب.

- لقد حاولتُ، يا جدتي، فعلا حاولتُ، لكن يصعب علي أن

أخرج من الحكايات التي عشتها. لقد رأيتُ قطعا خيالية وحدهُ الواقع يتجاوزها. زد عليه أنّ لدي كلب.

- كلب؟

- نعم كلب، أخيرًا صار بإمكاني أن أملك كلبا. هم يسمّونه آرْغوسْ، لكن في الواقع هو السيد برينديك.

- من؟

- السيد برينديك، شخصية من شخصيّات كتاب **جزيرة الدكتور مورو**. كلب ذكيّ جدا، ذو فرو أسود، قادر على أن يكون حيوانًا عقلانيًّا تمامًا. وهذه صفة تُميّز عديد الكلاب وقليلا من البشر.

قلت جملتي تلك وانسحبتُ إلى العلّية. وظلت جدتي تنظر إلي. وبطرف عيْني لمحتُها ترسم ابتسامة زيّنت تجاعيد وجهها.

***

لم أعد لزيارة السيد هايد وعصاه العصبيّة. كان التحدي المطروح مُختلفًا: لا بدّ من العثور على راسكولنيكوف. بحثت عنه في أعمال الأدباء الروسيّين حتّى وجدته في ثاني كتاب سحبتُه من الرف، مباشرة بعد كتاب **الأم** لغوركي. اسم الكِتاب **الجريمة والعقاب**. ولأنّ ظهره سميك فقد فتحتُه بحذر، توقيرًا لتلك الدسامة المُتجلّية في مئات الصفحات الطويلة. كان ثقيلا مثل طبخة الفاصوليا ومُجلّدًا على طريقة الكتاب المقدس. وقد كُتب العنوان

بحروف مذهبة، فائقة اللمعان. وتحت العنوان يظهر اسم المؤلّف: فيودور دوستويفسكي.

جلست على الكرسيّ المخطّط، أسندت الكتاب إلى صدري، وفتحته عند الصفحة الأولى. لم أكن قد ذهبت إلى سانت بطرسبرغ قط، وهي التي تدور فيها كل أحداث القصّة، لكنني ما إن بدأت القراءة حتى شعرت بأني أتجوّل في شارع نيفْسْكي، بشكل طبيعي تمامًا. طبعًا، ظهر السيد بريندِيك إلى جانبي وسار معي لاهثا ولسانه يتدلى خارج فمه.

لاحظتُ البنايات العظيمة والضخمة (مثل الكتاب الذي أضعه فوق صدري)، والقنوات التي تعبر سانت بطرسبرغ بشكل طبيعي. كان اليوم ماطرا، فاحتميت بكل ما استطعت إليه سبيلاً. وكلّما اختبأت في مكان ما لأحتمي من المطر الهاطل اغتنم بريندِيك الفرصة لنفض الماء عن جسده. ومن ثَمَّ يمكن تلخيص المشكل المُترتّب عن الطقس في ما يلي: إما أن يُبلِّلني المطر أو يُبلِّلني بريندِيك.

رأيتُ دُبًّا، دُبّا صغيرًا يأكل الحلوى وسط الشارع وقد شدَّه صاحبه إلى رسن. وتحت إحدى القناطر كان ثمّة مجموعة من الرجال يلعبون الشطرنج. مقابلات سريعة تتساوى فيها قيمة الحركة وقيمة الاستراتيجية. وخلال تلك الجولات، التي استمرت لعدة أسابيع، بدأت أُلِمّ بحكاية راسكولنيكوف. ويتعلق الأمر بشاب واعد، مليء بالأفكار والطموحات. كتب، ذات مرة، عن مسألة كثيرا ما نراها تحدث من حولنا: الإفلات من العقاب بعد ارتكاب بعض الجرائم.

أحيانا، يكون اعتقال نشَّال أسهل من اعتقال شخص مسؤول عن موت آلاف الكائنات البشرية. فالحقيقة أنّ الناس غالبًا ما يصنعون من هؤلاء المجرمين أبطالاً. ولهذا، كان الشاب راسكولنيكوف يبرّر، بطريقة سفسطائية، الإقدام على ارتكاب الجريمة مادام مقترفُها كائنًا بشريًا خارقًا للعادة لا مُجرّد إنسانٍ عاديٍّ مثل الآخرين. مثَلاً، يُمكنُ لنابليون أن يقتل كما يحلو له، لأنه فوق القوانين البشرية. لقد كان يقتل في حضور متفرّجين يصفقون لفعله. ولم يكن أحد ينظر إليه بوصفه قاتلاً. فهو في نظرهم إمبراطور مهووس بكونه إنسانًا. كان راسكولنيكوف يرى أنه من المشروع تجاوز القانون إن كان القصد نبيلاً. وأنّ الأمر قد لا يعدو قتل بعض المئات في سبيل الحصول على نتيجة جيدة. وقد سبق أن حدثت لي مثل هذه الأمور. فأنا أعرف أن الكذب أمر شنيع، وأُميّز بين الخير والشر. لكن لو أن صديقي بومْبو البدين جدًّا (والضخم ضخامةَ كتاب دوستويفسكي أو بناية من بنايات سانت بطرسبرغ) سألني هل له حظ في الظفر بالفتاة التي يحبها، سأكذب عليه وأقول له نعم. وإلا، فإن الحقيقة ستجرح شعوره أيّما جرح. ولذلك أنا أكذب كي أُجنّبه هذا الشعور. أي أنّني أرتكب شرًّا هو الكذب، لكن من أجل غاية نبيلة. أمّا جدتي فلا تؤمن بهذا البتّة، بل ترى أنّ الحقيقة هي الخيار الأفضل دائما وأنّ الكذب، حتى في مثل هذه المواقف، تصرّف سيء. ربما، غير أن راسكولنيكوف كان يؤمن بعكس ذلك تمامًا: «يمكن ارتكاب الشر إن كان القصد نبيلاً».

***

ذات يوم، لم يقدر راسكولنيكوف على أداء معلوم الكراء فقتل امرأتين هما أليونا إفانوفنا و ليزافيتا. كانت الأولى امرأة بخيلة (مثل الرجل العجوز في **أنشودة أعياد الميلاد** لشارل ديكنز)، ومع ذلك فلا شيء يبرر قتلها، سوى اندفاع راسكولنيكوف الإجرامي ويأسه. طبعا، كانت نظرياته تضعه فوق القانون مادام قد فعل ما فعل بنيّة حسنة. (فبخصوص تلك الحالة، كان راسكولنيكوف يقول إن العجوز أليونا إفانوفنا بخيلة، بل شديدة البخل، وإنّ العالم من دونها سيكون أفضل، بل أفضل بكثير). أما المرأة الثانية التي قتلها أيضًا فاسمها ليزافيتا وهي أخت غير شقيقة لأليونا إفانوفنا. وقد ماتت لأنّ سوء حظها جعلها تحلّ بالمكان غير المناسب، في الوقت غير المناسب.

أخيرًا، ومع تقدّم أحداث الحكاية، بدأ الندم يؤثر فيه. طفق وعيه يؤرّقه إلى أن سلم نفسه في نهاية المطاف، رغبة منه في نيل العقاب جزاءً مُستحقًّا لما فعله. لقد شعر بأنّ هذا العقاب سيهدّئ ذهنه المضطرب بسبب الجريمة. فكان أن سُجن، ونُقل إلي سيبيريا وتحمّل معاناة العقابِ لعدة سنوات. والحقيقة أنّه رغب في تلك المعاناة بوصفها سبيلاً لإطفاء نار الندم. وأظن الأمر يتعلّق بآلية سيكولوجية. فنحن نرغب في المعاناة حين ندرك أننا ارتكبنا شيئا فظيعًا، وكأنّنا نود أن ندفع ثمن فعلنا. ومردّ ذلك إلى أنّ الإنسان كائن معقد تحكمه أشياء في غاية البساطة.

حاولت أن أعرف ما حدث لراسكولنيكوف بعد العقاب، وبعد خروجه من السجن. قرأتُ التعليقات التي كتبها والدي بقلم

الرصاص على هوامش الكتاب. وفي الصفحة الأخيرة، وجدت ورقة مطوية على أربعة وبداخلها اسم مدينة وعنوان وخارطة رُسمت بعناية. كانت الخارطة توضّح الطريق المؤدّي من المحطة إلى شارع حُدّد بمداد أحمر. أمّا اسم المدينة فهو «فلاديفوستوك». رجعتُ بالنظر إلى كتاب خرائط، لأعرف موقع ذاك المكان ولو على نحو تقريبيّ. فإذا به بعيد كلّ البعد عن المنزل.

اتخذت قرارًا خاصًّا باليوم الموالي: سأعبر سيبيريا وسأصل إلى فلاديفوستوك، حتى لو كلّفني ذلك أن أذهب إلى طاولة العشاء متأخّرا.

الفصل التاسع عشر

اخترقَتْني كما لو كنتُ بابا دوّارا

«التحليق أمر في غاية السهولة». قرأتُ ذلك في كتاب سيرانو دي برجراك، ذاك الذي اشتهر بأنفه، مثلما عُرفت كليوباترا أيضًا بأنفها. حتّى أنّ مفكّرًا فرنسيًّا، يدعى بليز باسكال، قال: لو كان أنفها مختلفًا، لتغيّرت ملامح الكوكب الأرضي. أمّا أنا فأرى أنّها لو اختلف أنفها عمّا هو عليه لتغيّر وجهها بالكامل. وقد كتب غوغول، وهو مؤلّف روسي، قصة بعنوان «الأنف»، موضوعها شخص يفقد أنفه. على أيّ حال لنعد إلى مسألة التحليق. لم يكن سيرانو معروفا بأنفه الشبيه بأنف بينوكْيو فحسب، بل كان أيضًا مُبارزًا ماهرًا ومُغازلاً عظيمًا. وفوق ذلك، كان يعرف كيف يطير ويحلق دون حاجة لاختراع الطائرة. وما قام به، بكل كفاءة، هو التالي: عبأ قطرات الندى (ندى الصباح) في قوارير ثم اتخذ تلك القوارير لباسًا. وجميعنا نعلم أنّ الندى يصعد في الهواء، وأنّه يتشكّل من تلك القطرات الصغيرة التي نراها على الأزهار والأوراق، عند الصباح، ثمّ تتلاشى بمجرّد أن يدب فيها دفء الشمس.

أحكي كلّ هذا لأقول إنّ بياتريس، في ذلك اليوم، جاءت باتجاهي، ومرّت بجانبي مُخترقة إيّاي كما لو أنّي باب دوّار لتتقدّم نحو بومْبو وتُمسك بوجنتيه الضخمتين بين يديها (تلكما اليدين الرقيقتين!). ثم تقبّلهُ على شفتيه، كما في الأفلام.

أعرف أنها أقدمت على فعل يائس، ذلك أنّ كلّ ما كانت تصبو إليه هو تأجيج نار الغيرة بداخلي. وقد نجحت في تحقيقه. يُقال إن لكل شيء وجه وقفا، هو نقيضه. لكن، ما هو نقيض القبلة؟ ليس فعل الانفجار، كما قد نتوقّع. بل هو رؤية من نحبّ وهو يُقبّل شخصًا آخر.

***

لقد كان سيرانو دي برجراك مُغازلاً عظيمًا، لكن لماذا يحتاج رجل إلى قطرات الندى وهو يملك القدرة على التحليق بما يعلق في شفتيه من رُضاب قبلة؟ إن قوارير الندى لَتمثّل نظامًا متقادمًا إذا ما قورن بنظام الصبابة والعشق، فبضع قطرات من الرضاب الدقيقة يمكن أن ترفع عدة كيلوغرامات، حتى إن كانت كيلوغرامات من الشحم، كما هي كيلوغرامات صديقي بومْبو.

يومها، حين خرجنا معًا من المدرسة كان يحوم في الهواء. أمّا أنا، فكنتُ أستشيطُ غضبًا.

الفصل العشرون

فْلاديفوستوك

يرى البعض أن الجذور هي الجزء الخفي الذي يسمح للشجرة بالنمو. أما أنا فأرى أن الجذور هي الجزء الخفي الذي يمنع الشجرة من التحليق مثل الطيور. ففي الحقيقة، ما الشجرة إلاّ طائر فاشل.

في الأيام التي تلت ذلك المشهد المهين الذي قبَّلت فيه بياتريس (ذات العينين الكستنائيتين الصافيتين) صديقي بومْبو إلى درجة أنه تحوّل، حرفيّا، إلى بالون من الهِلْيوم، اختُزل كل شيء من حولي في ما له علاقة بالتحليق. فراشة = أمرًا جيّدًا. حجرة = أمرًا سيّئًا. وقت = أمرًا جيّدًا. جاذبية = شيئًا فظيعًا. أشجار= طيورًا فاشلةً.

***

دخلتُ إلى بيت جدتي وارتديتُ لفاعة.

- «ألا ترى أن الجو حار ولا يحتاج ارتداء لفاعة؟» قالت.

- لكنّه ليس كذلك في المكان الذي أقصده.

- لاتنس موعد العشاء.

تجاهلتُ نصيحة جدّتي وركبتُ القطار في سانت بطرسبرغ: ومن هناك انطلقت في رحلةٍ دامت ساعات عديدة نحو فْلاديفوستوك. لم أكن أحمل معي غير حقيبة ظهر والخارطة التي رسمها والدي. أن تقطع روسيا معناه أن تعبر إحدى عشر منطقة زمنية. فحين يكون الوقت نهارًا في الطرف الأقصى من البلاد، يكون ليلاً في الطرف الآخر. إنّ روسيا مثل الروح البشرية. إذا كانت فيها جهة مضيئة، فلأن الجهة الأخرى مظلمة. وإنّنا جميعًا نتشكّل من هذا الخليط الغريب من المناطق الزمنية.

توقف القطار في موسكو، لكنّي لم أغادره. كانت وجهتي أبعد من ذلك بكثير.

عند نهاية الرحلة (وقد بدا لي أنها دامت ستة أيام) غادرتُ القطار، واندمجتُ في البرد قاصدًا ذلك الشارع الذي قرأت اسمه في تعليقات والدي. قطعت جادّة قرب الميناء، وفق ما كان مُبيّنا في الخارطة، وأثناء المشي رُحت أتسلّى بمنظر الهواء المتصاعد من فمي وكأنّه دخان مُنبعث من غليون. حينئذ ظهر السيد بريندِيك فجأة، وهو يترنّح. بدا كمن جاء من لندن ركضًا. وقد فاحت من فروه المبلّل رائحة كلاب قويّة، لذلك لم أطل مداعبته.

مشينا قليلا، ثم توقفنا أمام بيت متواضع، قرعتُ الجرس ففتحت لي سيدة، وحين تحدثتُ عن راسكولنيكوف، بدأت ترغي وتزبد بالروسية:

- **Уйди маленький человек!**

-«اسمي إلياس بونْفينْ» -قلتُ وأنا أتحاشى شتائمها ذات الحروف السيريلية ثمّ أضفت «أريد أن أتحدّث إلى راسكولنيكوف».

ولكنّها استمرت في صياحها:

– Уйди ты дурак!

انتظرت حتى تهدأ. وكان برينيدك قد اهتاج هو الآخر وأخذ يدمدم مُهدّدًا (لكنّه لم يرقَ إلى شتائمها السيريليّة الحروف). في الأثناء استدرت نحو الشارع، واضعًا يديّ في جيبي، ومراقبًا الهواء المتصاعد من فمي. كنتُ أبدو كأنّني أدخّن غليونًا. وكان السيد برينيدك جالسًا إلى جانبي منشغلاً بحكّ أذنه اليسرى.

حين خبت الصيحات وأخذت تتحوّل رويدًا رويدًا إلى نواح خافت التفتُّ. في البداية بدا النحيبُ محتشمًا، معزولاً، لكنّه سرعان ما تحوّل إلى بكاء لا يُردع، ثم صار عاصفة روسية. كانت صوفيا مارميلادوفا (هذا هو اسمها) جاثية على ركبتيها ورافعة ذراعيها إلى السماء، وهي سيّدة سمينة بعض الشيء وتنتعل خُفًّا من القماش، فلمّا كلّت يداها من التوسل إلى السماء انكمشتا قرب المريلة ثم تمسّكتا بها ولوتاها. أمّا وجهها فقد وشى، رغم المعاناة المرسومة عليه، بأنّه في ما مضى كان جميلاً. صحيح أنّي لا أُتقنُ اللغة الروسية، لكنّي أُتقنُ قراءة الوجوه المختبئة وراء الزمن. إنّ ذلك مثل قراءة الكلمات. نرى حروفًا فنحوّلها بالقراءة إلى أصوات وأفكار. والشيء نفسه ينطبق على الوجوه. إنّ الوجوه لغة ولا بدّ من معرفة قراءتها.

- «اسمي إلياس»ـ قلتُ مرة أخرى.

كفت صوفيا عن البكاء، كفكفت عينيها بالمريلة فانزلقت تنورتها نحو الخلف كاشفةً عن ساقين غاية في البياض، ثم قالت بصوت ما يزال مشوبًا بالنحيب:

- اسمي صوفيا سمينوفنا مارميلادوفا.

- «أودّ أن أتحدّث مع السيد راسكولنيكوف».

نظرتْ ذات اليمين وذات الشمال ثم أمرَتْني بالدخول فاستجبتُ. أما السيد بريند يك فقبل الدعوة بسرعة ودون إلحاح.

توجهتُ نحو قاعة رحبة كان بها على يميني سماور موضوع قرب النافذة، وستائر ذات تخاريم بيضاء تحجب ضوء الصباح. وقد عمّت المكان رائحة خفيفة ولكن مزعجة لأنابيب وبالوعات مياه عادمة. وحالما دخلنا جرى بريند يك نحو الأريكة، دون تكلّف، وتمدد فوقها.

- «هل تريد شايًا؟» سألتْني السيدة صوفيا.

أومأتُ بحركة من رأسي موافقًا. أخذت الغلاية الموضوعة فوق السماور وصبت كأسين، كأسًا لها ممزوجًا بالفودكا، وكأسًا لي بنقع الزيزفون. خلعتُ القفازين واستمتعت بدفء الشاي بين يديّ.

- ما اسمك، يا سيدي؟

- «إلياس بونْفين»- قلتُ للمرة الثالثة أو الرابعة.

- اجلس، سيد بونْفين.

كانت الأريكة مخطّطة مثل كرسي والدي في العُلّيّة. جلستُ

قرب بريندیك واحتسيتُ الشاي، وأنا أحرص كل الحرص على ألا أحترق.

- «أودّ أن أتحدث إلى راسكولنيكوف». طلبتُ منها.

- هذا مستحيل، سيد بونْفينْ.

- إنني شخص يُصرّ على ما يريد، عزيزتي صوفيا سمينوفنا مارميلادوفا. ولن أغادر هذا المكان دون أن أقابل راسكولنيكوف.

- إنك لا تفهم، سيد بونْفينْ، أنا لم أر هذا الوحش منذ عدّة سنوات.

- احكي لي ما حدث، سيدة مارميلادوفا.

- كان كل شيء على ما يرام. كان واضحًا أنه قد كفّر عن ذنبه في السجن. وقد بدا لي أنه غادر السجن بضمير طاهر.

- لكن الأمر لم يكن كذلك؟ لقد ألمح دوستويفسكي إلى هذا.

- دوستويفسكي، دوستويفسكي ماذا يعرف عن الحياة دوستويفسكي هذا؟ كل شيء حدث كما أرويه لك الآن، أما الباقي فهو مجرّد أدب. لم يكن راسكولنيكوف يذوق طعم النوم. كان يلتف في الفراش، محموما، ويتقلّب من جهة إلى أخرى وهو يتصبّب عرقًا، وحين يغفو تجتاحه الكوابيس. لقد عاش جحيمًا لأنّ ضميره ظلّ يؤرّقه. لم يكن سجنه في سيبيريا وسط الأعمال الشاقة، كان سجنُه الحقيقي داخل ذهنه. ففي الذهن يكون الناس إمّا أحرارا أو سجناء.

- وماذ فعلتِ؟

- لا شيء. وماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كنتُ أضمه بين ذراعيّ، لكن ألمه ظلّ حادًّا جدًّا، حتّى أنّي كلّما عانقني ارتجفت لشعوري بكلّ ذلك اليأس مُلتصقًا بجلدي. كان جسده كلّه صيحة مرتبكة. ومع توالي الشهور ساءت أحواله وبدا كمن أصابه مسّ إذ بدأ يخرج ليلاً، وهو ما لم أنتبه إليه أوّل الأمر، فيقضي بضع ساعات في الخارج ثم يظهر قبل طلوع الفجر وقد بردت يداه وأنفه إلى أقصى حدّ. وذات يوم، انتبهتُ إلى أن ملابسه كانت ملطخة بالدماء ففزعتُ ظنًّا منّي أنه أصيب بجرح، فإذا بالحقيقة أكثر رعبًا من ذلك بكثير!

- ألم يكن الدّم دمُه؟

- كلاّ، لم يكن دمه.

بعد العبارة الأخيرة التزمتْ صوفيا مارميلادوفا صمتًا دراميًّا لبرهة ثمّ تابعت.

- كان كلما خرج ليلا يقتُل. دون تمييز. انظر، عزيزي بونْفينْ، لقد كان راسكولنيكوف يعاني من الجريمة التي ارتكبها، وماذا يصنع من يعاني بتلك الطريقة؟ طبعًا يحاول أن يخفّف الألم. وما هي الفكرة التي خطرت لراسكولنيكوف؟ إنّها فكرة بسيطة جدًّا. قل لي سيّد بونفين، عندما دخلت إلى هذه القاعة ألم تشتم رائحة بالوعة مياه عادمة؟ أظنّ أنك اشتممتها، لأن كل الذين يدخلون إلى هذا البيت يشتمّونها. لكن اعلم، سيد

بونْفينْ، أنّني لا أشتمّها، وأنّك أنت أيضًا، يا سيّدي، لم تعد تشتمّها.

- هذا صحيح، حين دخلتُ لم أجد بُدًّا من الانتباه إلى ذلك. هل هي رائحة مُتأتّية من المرحاض؟

- لا يهمّ، المهمّ أنّنا حين نعتاد على الرائحة الكريهة نكفّ عن شمّها. لقد فكّرَ راسكولنيكوف في الأمر نفسه. إذا صار القتل شيئًا مبتذلاً وعاديًّا، فإنّه سيكفّ عن تأريقه. ولذلك شرع يقتل. يجب أن أقول لك إن رواية دوستويفسكي أصبحت مهجورة وخالية.

- لكن، كيف علمتِ أنه كلما خرج ليلا، كان يتسلى بمثل هذا النشاط القاسي؟

- إنه حدس الأنوثة. زد عليه أن مفتش الشرطة، بورفيريو بيتروفيتش، جاء إلى هذا البيت وحكى لي أن لديهم شكوكًا بخصوص راسكولنيكوف.

- هل سجنوه مرة أخرى؟

- كلا. حين جاء بورفيريو بيتروفيتش ليطلعني على شكوكه كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الحضور إلى البيت منذ مدّة. لكنّ المفتّش لم يصدّقني وظلّ يراقبني لعدة شهور، ومع ذلك فإنّ راسكولنيكوف لم يعد قطّ إلى هذا البيت. لقد اُختفى، تبخّر، ولا أظنّ أحدًا يستطيع أن يجده. لاحظ، سيد بونْفين، أنه ليس

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لديه دافع إجرامي محدّد. ومن ثمّة يمكنه أن يقتل أي شخص في أية ظروف. فهو لا يقتفي أثر هذا أو ذلك، ولا يحرّكه هذا الدافع أو ذاك. إنّما، بكلّ بساطة، يغتنم الفرص. ومن الصعب جدّا أن نجد شخصًا مثله. إنه وحش، وحش!

ثم أضافت بحروف بارزة:

- **إنه وحش!**

- وماذا عن والدي، هل كان هنا؟

- ماهو اسم والدك؟

- فيفالْدو. فيفالْدو بونْفينْ.

- عجيب. لقد قدم إلى هنا، بالفعل، رجل يحمل هذا الاسم. الآن انتبهتُ للأمر، لأن اسمه هو اسمك. هل هو والدك؟

- نعم.

- أرأيت كيف هي الحياة، سيد بونْفينْ؟ إنها تعج بالمصادفات.

- أخبريني، سيدة صوفيا مارميلادوفا، ماذا كان والدي يريد؟

- ما تريدُه أنت، يا سيدي. كان يريد أن يتحدّث مع الوحش!



الفصل الحادي والعشرون

البارون المعلق

غادرتُ بيت صوفيا سيمينوفنا مارميلادوفا دون أيّ أثر أقتفيه. شعرت بالإحباط، إذ أنّي لم أهتدِ إلى طريقةٍ تُتيح لي العثور على راسكولنيكوف. خرجت من برد سبيريا بروح متجمّدة. لم أكن أجهل سبيل متابعة البحث فحسب بل إنّي أيضًا ما كنت مدركًا لما يُحدق بي من أخطار. كان من الضروريّ أن أعثر على قاتلٍ كي أجد والدي. وهو، هل كان في خطر؟ طبعا كان كذلك.

***

وصلتُ متأخرًا إلى مائدة العشاء مرة أخرى. والنتيجة أنني عوقبت بمنعي من الدخول إلى العُلّيّة لمدة أسبوع آخر. كانت هناك بعض القيود الأخرى لكنها لم تؤثر في بالطريقة نفسها. مُنعت من الذهاب إلى السينما وكذلك من لعب الكرة. مرَّ علي ذاك الأسبوع بصعوبة كبيرة.

– أمي، هل سمعت من قبل عن البارون المعلق؟

- كلاّ.

- كان رجلاً عنيدًا، ابتكره كاتب يُدعى إيتالو كالفينو. ولقد أجبره والده البارون على تناول الحساء، وليتجنّب ذلك صعد إلى أعلى شجرة. ولقد حاول والده أن يجبره على النزول، لكنه قال إنه لن ينزل، لن ينزل أبدًا. وكذلك كان. لم ينزل قطّ وعاش إلى الأبد فوق أعالي الأشجار دون أن يطأ الأرض بقدميه.

- وماذا تقصد بكلّ هذا؟

- أقصد أنني أنا أيضًا أستطيع أن أعصي أوامرك وأصعد أدراج العلّية، رغم منعك، نحو حريتي. وألاّ أنزل أبدًا.

- لك أن تتجرأ على ذلك. ثمّ إنّ المرء قد يعيش منتقلاً من شجرة إلى أخرى، ولكن كيف لك أن تعيش في علّية لم تعد تجاري ذوق العصر؟

- إنّه أمر بسيط جدًّا، سوف أنتقل من كتاب إلى آخر.

هزت أمي كتفيها متنهدة ثم أولتني ظهرها وغادرت.

- «إن الكتب التي تستند ظهورها إلى كتب أخرى فوق الرفوف عبارة عن عوالم متوازية!» قلت صادحًا ليبلغ صوتي القاعة، لكني لم أحصل على ردّ.

الفصل الثاني والعشرون

أمر طفيف

بعد أن انقضى أسبوع العقوبة قرأت باعتدال خلال ما تبقّى من الشهر. لم أعد ألتهم الكتب بالطريقة نفسها. غاب عني السيد بريند يك فصارت الأمور فاترة، ودون حماس. تجوّلت بنظري عبر الرفوف، ظهرًا ظهرًا، حرفًا حرفًا، وكتابًا كتابًا. إلى أن جاء يوم قرأتُ فيه على ظهر من أظهر تلك الكتب الأثر الذي سوف يقودني إلى حل اللغز، ويُتيح لي رؤية والدي مرة أخرى.

ما حدث هو أنني تذكرت أمرًا بسيطًا (تافها مثل كل الأمور البسيطة التافهة) جرى في بيت صوفيا مارميلادوفا، وهو أنّها في لحظة ما ألقتْ ببعض الأوراق القديمة من الجريدة في موقد النار، وقالت هذه الجملة الغريبة:

- إنّ الورق يحترق عند 451 درجة فهرنهايت.

حينئذ بدا لي أنّ الجملة لا تنطوي على أي قصد. ولكن ما هذا الشيء الذي يسمونه درجة فهرنهايت؟ حسنا، بعد أسبوع، اكتشفتُ وأنا أفتش بين رفوف العلّية ظهر كتاب مختبئًا بين **عبودية الإنسان**

لِوليام سومرست موم وكتابًا آخر لهيربيرتو هيلدر، وقد كُتِب عليه بحروف صفراء فهرنهايت 451. وحالما قرأتُ العنوان ارتجفتُ.

الفصل الثالث والعشرون

الحرارة التي يحترق عندها الورق

ذات يوم آخر، جلستُ في الكرسي الكبير وبدأتُ أتصفح كتاب فهرنهايت 451. فأدركتُ أنّها درجة الحرارة التي يحترق عند بلوغها الورق. ويروي الكتاب قصّة تجري أحداثها في المستقبل، في عالم تُمنع فيه الكتب وتُحرق. إنه كتاب مليء بالورق المحروق. في هذا العالَم الذي ابتكره راي برادبوري، لا يقوم رجال الإطفاء بإخماد النار بل على العكس من ذلك، يقومون بإشعالها لحرق الكتب. لكن، في هذا العالَم، كما في كل العوالم التي تحترم قدرها، يوجد أشخاص متمردون على النظام، قادرون على القيام بأشياء رائعة من أجل حرية التفكير. فكان هناك، في ذلك المكان، من يخاطر بحياته لا لشيء إلاّ لأجل متعة القراءة. وأولئك الأشخاص ما انفكّوا يحتفظون بالكتب، ويخبئونها في بيوتهم.

إنّ الشخصية الرئيسية في هذه القصة رجل إطفاء، يُدعى مونتياج، تحوّل شيئًا فشيئًا إلى متمرّدٍ على عمله المتمثّل في حرق كتب الأدب. والسبب أنّه بدأ يشعر بفضول القراءة، وذات يوم أنقذ بعض

الكتب من المحرقة وانبرى يقرؤها. في نهاية المطاف، أصبح يعيش في حالة فرار، حتّى التقى بمجموعة من الأشخاص ساعدوه. وهم أشخاص لا يملكون كتبًا لأن ملكيّتها قد تعني نهاية حياتهم، لكنّهم لم يستغنوا عن الأدب. إذ خطرت لهم فكرة غريبة جدًّا: أن يعيشوا مثل المتشردين ويحفظوا الكتب عن ظهر قلب. فكان كل واحد منهم يحفظ كتابًا واحدًا من ألفه إلى يائه، حدّ أن يغدو معروفًا بعنوان ذاك الكتاب. لقد كانوا كتبا بشرية.

تعرفت مع هؤلاء الأشخاص على شتى أنواع الأدب. إنّهم مكتبة تمشي على رجليها وتبتسم.

***

قضيتُ عدة أيام أتجوّل عبر فهرنهايت 451، وذات مساء، جلستُ قرب غدير تحفّه شجيرات البتولة، بينما كان السيد برينديك يصطاد، فرأيتُ كوخًا من خلال أوراق الخريف الميتة. توجهت إليه، مدفوعًا بالحدس. وجدتُ الباب مواربًا فحسب، لكنّي طرقته قبل أن أدخل. كان الكوخ كلّه من الخشب وبه أواني مطبخ معلّقة على الجدار. ومن الباب المفتوح ينبعث ما يكفي من الضوء لرؤية أريكة صغيرة وغطاء، ومائدة خشنة، وقنّينة فودكا موضوعة فوقها، وشوكة أكل مغروسة في قطعة من الجبن. أمّا دفة النافذة الوحيدة فكانت مغلقة، ومع ذلك فقد تسنّى لبعض خيوط الضوء أن تتسرب بين شقوقها. وكان هناك أيضًا رفش يستند إلى الحائط وتنكات مستعملة متناثرة على الأرض، وكرسيّ.

فجأة، سمعتُ جلبة خلفي. أُغلق الباب وغرق الكوخ في الظلام المطبق تقريبًا (إذ كانت هناك تلك الخيوط الدقيقة المتسربة عبر شقوق دفة النافذة). فاندفع قلبي يخفق بقوة لا سيّما أنني سمعت ورائي صوت تنفس ثقيل.



الفصل الرابع والعشرون

لم أكن أستطيع أن أتحرّك لفرط النحيب من حولي

أُشْعِلَ ضوءٌ. وحين استدرتُ وركّزت نظري فيه، رأيتُ رجلاً مُريعًا، نحيفًا وضامرًا، يمسك شمعة بإحدى يديه. لم أكن بحاجة إلى طرح أسئلة كي أدرك أنني في حضرة وحش: كان ذلك الرجل هو راسكولنيكوف الشهير!

أمرني بالجلوس، فجلستُ بحذر فوق السرير (كنتُ قريبًا جدًّا من النافذة). تنخّمَ، ثمّ أمرني بحركة من رأسه أن أجلس على الكرسيّ.

- «على الكرسي». قال لي.

وضع الشمعة فوق الطاولة، أمامي بالضبط، ثم جلس فوق السرير. كانت رجلاه تحدثان صريرا وهو يثنيهما. ولم تفارق الفأسُ يده.

أردتُ أن أقول شيئًا، لكن الكلمات وقفت مترددة على لساني ثم نُثرت جملاً ونقطًا مُبعثرة. لقد كنت أشعر بالرعب.

● ● ● • • •

● ● ●

• • • •

• • •

أشعل راسكولنيكوف موقد النار، بكل هدوء، فبدت ألسنة اللهب كأنها تحرق النار نفسها.

سألني عن اسمي فأجبتُه:

- إلياس بونْفينْ.

- «وماذا تريد، يا سيدي؟». سألني بكلماته الميتة تلك.

- حسنا، إنني ... سيد راسكولنيكوف، إنني ...

- «كيف عرفت اسمي؟» سألني وهو يشد بتوتّر قبضة يده الفارغة.

- أنا قارئ نَهِم ...

- آه! إذا كنت قارئًا نهما فنادني باسم رودْيا. لم يناديني أحد بصيغة

التصغير منذ زمان. لقد عشتُ مع امرأة أحبّها وعليها عقدتُ آمال خلاصي، وهي من كانت تناديني بهذا الاسم: رودْيا. والآن، أظن أنها صارت تناديني الوحش.

- ليس لأحد أن يلومها على ذلك، سيد رودْيا.

- رودْيا فحسب. لست سيّدًا من الأسياد. لقد بدأت تُوتّرني عزيزي إلياس بونْفينْ. أخبرني بما جئت لأجله.

- إنني أبحث عن والدي.

- وما اسم والدك؟

- فيفالْدو، فيفالْدو بونْفينْ.

ما إن أنهيت الجملة حتّى رأيت عيني الرجل وقد اغرورقتا بالدموع. طفق يبكي كالطفل. أطلق الفأس من يده وتمرّغ على الأرض ثمّ أمسك برجليّ. لم أستطع أن أتحرك لفرط النحيب من حولي. كان راسكولنيكوف يرتعش ويئن، والدموع تنهمر من عينيه المتعبتين. أما أنا، فتمسّكت قدر ما استطعت بالكرسي والقماش المخطّط.

- كيف لم أنتبه إلى أنك تحمل الاسم نفسه؟ عندما أخبرتني باسمك كان علي أن أنتبه إلى أنه الاسم نفسه. غريبة هي أذهاننا. أحيانا لا ترى البديهي، سيد بونْفينْ. لا ترى ما هو ماثل أمامنا طوال الوقت.

بعد أن استعاد راسكولنيكوف هدوءه، جلس مرّة أخرى. لم تعد الفأس في يده، لكن الدموع لم تفارق عينيه. وكان صوتُه يخرج

مرتعشًا بسبب نحيب لا يتجاوز حنجرته.

- سأروي لك قصتي، صديقي بونْفينْ، فهي ترتبط ارتباطا قويا بحكاية والدك. لقد سجنوني، كما تعلم، وقد ظننت ذلك عقابا محمودًا كفيلاً بأن يهدئ ذهني، ويطهر ذنبي. لكنه لم يكن كذلك. ليس هناك من غُسل يُبيّض الذنب. إنها وصمة سوداء ويبدو أنها ستبقى كذلك على الدوام. لذا قررتُ أن ...

- أن تقتُل.

- تمامًا، سيد بونْفينْ. فنحن حين نرى زهرة وسط الصحراء، نعجب بها، أمّا إذا عشنا محاطين بالأزهار الجميلة فإنّنا لا نكترث للأمر. إذ تفقد الأزهار كل معاني تميّزها، وتفرّدها. إنها ضريبة الكثرة، ولتعلمْ، عزيزي بونْفينْ، أنّها داء العصر. فكل شيء يخضع للكثرة، ونحن نعيش في مملكة الكَمّ، مُحاطين بالأشياء كي ننسى أنفسنا وما يجري هنا بدواخلنا. ولقد اعتقدتُ على أساس ما سلف، أننا إذا قتلنا من مُنطلق العادة، فإن الذنب سينتفي لافتقاده أهميته، ذلك أنّه لن يغدو فعلاً منعزلاً، فظيعًا، بل أمرًا مألوفًا، ومعتادًا، أي شيئًا عاديًا. ولكن ذلك لم يحدث. إذ لم يكن تدبيري ناجحًا. وعليك أن تعلم، صديقي بونْفينْ، أنّ موت كائن بشري لا يصبح أبدا أمرًا مبتذلاً. لذا، لم أعد أملك مَوْتين في الضمير بل أصبحتُ أملك من الموت المئات.

- مئات؟

- مئات.

- ألا تبالغُ؟

- مئات، كأقل تقدير. وليس في الأمر أيّ مبالغة.

ثم أخذ ينتحب من جديد.

- فلْنَرَ ماذا بإمكان الإنسان أن يكون: توركيمادا أو القديس فرنسيس (وها إنّي أعطيك مثلاً عن رجلين مسيحيّين). إن الروح البشرية تتصارع بين هذين النقيضين. وقد امتلأت روحي بظلام ثقيل. أنا لستُ شخصًا شرّيرًا، عزيزي بونْفينْ، لست كذلك. بل أعتقد أنني شخص طيب. لو لم أكن طيّبًا، فمن أين يأتيني الندم؟ في الحقيقة، إنّ هذا هو سبب توهاني في عالم فظيع. أولا، لأنني قبلتُ أن أقوم بالشر بمبرر السعي وراء خير أسمى. وهذا أمر لا وجود له، صديقي بونْفينْ. لا وجود لأي خير أسمى، تمامًا مثلما ليس هناك وجود لأي جرّة من الذهب في تخوم قوس قزح (لقد كنتُ هناك وأعرف ما أقول). إن هو إلاّ مجرد مبرّر كي نستطيع القيام بالشر ثم نتمكّن من النوم بعد ذلك. لكنّي أملك ضميرًا. ولستُ غبيّا. صحيح أنّني وحش، لكنني لست وحشًا غبيًّا. في نهاية الأمر، ثمة بداخلي شيء أقوى من أحسن الحجج العقلية. مثلاً، لو أن صديقا لك، صديقًا سمينًا، سألك أيملك فرصة لأن تعشقه أجمل فتاة في المدرسة أم لا، فماذا سيكون جوابك؟ الحقيقة أم الكذب؟ إنّ الكذب هو أسهل الخيارين، وقد تُبرّره قائلاً إنه أفضل من الحقيقة،

لأنه ما من داعٍ إلى جرح شعور شخص ما. نعم، هذا صحيح، لا داعي إطلاقًا إلى جرح شعور الغير، لكن ثمة طرق عديدة لقول الحقيقة، صديقي بونْفينْ، وبعضها لا تجرح الشعور. وإن حصل ذلك، فإنّ الجرح دائمًا ما يكون أهون من الكذب. أقول لك هذا لأنّه الكلام نفسه الذي حدّثني به والدك وأنا أوافقه الرأي. ثمّة دائما طريقة للقيام بالأمور بشكل صحيح.

بعد ذلك توقّف راسكولنيكوف برهة وقد بدا عليه التأثّر. ثمّ كفكف دموعه بذراعيه وتابع قائلا:

- كنتُ أعيش في كابوس. في جحيم. لكن الأمل لاح لي ذات يوم. ذلك أنّي علمت بوجود شخص يُدعى مورو فحاولت أن ألتقي به. ذهبت إلى لندن وتحدّثتُ مع إدوارد بريندبك، لكنّه لم يعطني جوابا يذكر. ما كنت أسعى إليه، صديقي بونْفينْ، أمر بسيط للغاية. لقد انتبهت إلى أن الحيوانات ليس لها مشاكل ناتجة عن وخز الضمير، أو هذا ما بدا لي.

- ربما ليس الأمر كذلك. دعني أروي لك هذه الحكاية التي رواها لي صديقي بومْبو ذات مرة. إنها حكاية رجل صيني اسمه تشانغ تسي.

***

حكاية تشانغ تسي عن الأسماك

جلس رجل قرب نهر وقال إنه معجب بالأسماك التي تسبح سعيدة. فسأله الآخر: «أنت لست سمكة، فكيف لك أن تعرف أن

الأسماك سعيدة؟» فرد الأول: «وأنت لست أنا، فما أدراك أنني لا أعرف هل الأسماك سعيدة أم لا؟»

***

- ربما تكون مُحقًّا، عزيزي بونْفينْ، لكنني وقتئذ، أؤكّد لك، كنتُ أعتقد أنّ الحيوانات لا ضمير لها، وأنّها لا تشعر بثقل الذنب. لذلك كنتُ بحاجة إلى أن ألتقي الدكتور مورو. على أساس أنّه إذا كان قادرًا على تحويل حيوان إلى إنسان، فربما يكون قادرًا أيضًا على أن يحوّل إنسانًا إلى حيوان. لو فقدت إنسانيتي فقد أعيش من دون تبكيت ضمير.

- أولم يساعدك إدوارد بريندك؟ مكتبة الرمحي أحمد

- كلاّ، لم يساعدني. في الحقيقة، لقد حاول أن يعضّني، فرججتُه وغادرتُ وأنا في قمّة اليأس. لقد كان ذلك هو أملي الأخير. ولكنّه أُجهض. عدتُ إلى البيت وقضيتُ أوقاتًا عصيبة، بين الحمّى المرتفعة والارتعاش. ساعدتني صوفيا قدر الإمكان، لكنها كانت تتوجّس من أي شيء. وذات يوم، ظهرتُ بملابس مضرّجة بالدماء، واعترفتُ لها بأنني عدت لممارسة القتل. ومنذ ذلك الحين، علمتْ أنني كلما خرجتُ ليلاً، ارتكبت أكبر الجرائم دناءة. لكن، ويا لسخرية القدر، عاودني الأمل عندما تذكّرت كتابًا لستيفينسون وتلك الشخصيّة الخاصة جدًا: دكتور جيكل. فعدتُ إلى لندن. ومرّة أخرى، دون جدوى، إذ لم يعد لجيكل أي وجود بعد أن تحوّل نهائيا إلى

مستر هايد. وقد تكون تلك الجرعة التي أدّت إلى هذا التحول علاجًا شافيًا لي، فحين تحدثتُ مع مستر هايد لاحظتُ أنه كائن لا يبالي بتاتًا بوخز الضمير، ولا بالذنب. لكنني لا أعرف طريقة تحضير تلك الجرعة التي حولتْهُ إلى ما هو عليه الآن. لقد اختفى ذلك السر مع الدكتور جيكل. ولذلك فقدت الأمل مرة أخرى، فعدتُ إلى سيبيريا وانغمست في ظلام حياتي المأهولة بالأموات.

«إن هذه الدنيا متقلبة الأحوال، سيد بونْفينْ، بل كثيرة التقلب. لذا، ليس غريبًا أن ظهر عند باب بيتي، ذات يوم، شخص أنيق جدًّا هو والدك. وقد سمحتُ له بالدخول وتركته يتكلّم فقال لي شيئًا في غاية البساطة ولكنّه غيّر حياتي، وإلى الأبد.

- وماذا قال لك والدي؟

- أخبرني بدرجة الحرارة التي يحترق الورق عند بلوغها.



الفصل الخامس والعشرون

الفراشة

خرجتُ أنا وبومْبو في نزهة ممتطييْن دراجتينا، وهو شيء ليس متاحًا بعد فعله بالحاسوب. توقّفنا في حديقة ليتحدّث معي في أمرٍ مهمٍّ جدا كان يريد أن يخبرني به:

- تعرف، إلياس، إن حكاية ولوجك إلى الكتب هذه ... حدث لي ما يشبهها تمامًا ذات يوم. هناك حكاية يرويها تْشانْغْ تْسي عن حلم يرى فيه أنّه فراشة حتّى إذا استيقظ، لم يعرف أهو إنسان رأى في حلمه فراشة أو فراشة تحلم بأنها تْشانْغْ تْسي.

- سبق وحكيتَ لي هذه الحكاية.

- نعم، لكني ذات يوم، حلمتُ بأنني أنا هو تْشانْغْ تْسي. ومنذئذ لم أعد أعلم عِلْم اليقين هل أنا شابّ حلم بأنّه فيلسوف صيني أم أنّني فيلسوف صيني يحلم بأنّه مراهق سمين.

- أؤكّد لك أنك لست صينيًّا بأيّ حال من الأحوال.

- ربّما، لكن حتّى تأكيدك لا يُطمئنُني. لماذا أروي لك كل هذه

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الحكايات حسب اعتقادك؟

- لستُ أدري، يا بومْبو، لست أدري.

- لقد تهتُ في إمبراطورية الوسط، تلك التي يعيش فيها تْشانْغْ تْسي. تهتُ كما تتوه أنت حين تتوغّل داخل الكتب. لدرجة أنني لا أعرف على وجه اليقين هل أنا في الحقيقة، صينيّ حلم بأنّه فراشة أم غير ذلك. إذ يمكن أيضًا أن أكون فراشة حلمت بأنّها تْشانْغْ تْسي الذي حلم بدوره بأنّه أنا.

- فراشة ثقلية جدًّا.

- أو بتعبير آخر: تْشانْغْ تْسي لا يعدو أن يكون مراهقًا حلم بأنّه فيلسوف حلم بأنّه فراشة.

- هدّئ من روعك، يا بومْبو.

بينما كان الحديث يجري على هذا المنوال ظهرت بياتريس. وفي ذلك المساء تحديدًا طفا إلى السطح الجانب الأكثر ظلامًا من شخصيتي. لكنّي سأتحدّث أوّلاً عن مرض السكري.

إن بومْبو مصابٌ، بالإضافة إلى السمنة، بداء السكري. وحين اقتربت منّا بياتريس أخذتُ أقوم بما يقوم به كل الشبان تجاهه: سخرت منه واحتقرته. لن أصف، بدقة صحافية، ما قمتُ به لأنني أخجل من ذلك، لكني سأحكي الأهم، وهو أنّ إصابة بومْبو بداء السكري تُصنّف من النوع الأول. وهذا يعني أنه رهين مادّة تسمى الأنسولين. إذ أن عضو البنكرياس في جسده لا ينتج هذه المادة، ما

يُجبره على تعاطي الحقن بعد وجبات الأكل. ولهذا فإنّ حياته ليست بالسهلة.

في ذلك المساء، بلغتُ مبلغًا سأندم عليه بقية حياتي. ليس بسبب أفعالي فحسب، بل لِما ترتّب عنها من عواقب وخيمة. فقد رحت أحوم بصديقي راكضًا، بعد أن احتقرتُه بكلمات مهينة. ولم أتورّع عن سحب قميصه، وأنا أضحك، وأصيح في وجهه بأن يخرز مزيدا من الحقن في دهون بطنه، لعلمي أنّه اعتاد أن يحقن الأنسولين هناك تحديدًا، تمامًا كعلمي بالحياء الذي يشعر به تجاه مرضه وكل ما له علاقة بذلك. لأنّي الوحيد الذي سمح بومْبو لنفسه بأن يبوح له بكل شيء ويتقاسم معه محنته.

بعد أن تركته وعيناه مغرورقتان بالدموع، استدرتُ وذهبتُ إلى حال سبيلي. لم أحمل معي أي ذنب، بل، على العكس من ذلك، كان رأسي يعج بالشتائم والسخط. ولقد مشيت حتى بلغت العلّية لأتحدّث مع راسكولنيكوف.



الناس يصبحون كتبا

- «هل تعرف ما يجري هنا، سيد بونْفينْ؟ هنا في رواية راي برادبوري هذه؟» سألني راسكولنيكوف مبتسمًا. وكان الطعام العالق بين أسنانه جديرًا بأن يباع في سوق للتحف القديمة.

- «يحفظ الناس كتبًا عن ظهر قلب، ومن ثَمَّ يصبحون كتبا». أجبتُه.

- صحيح، تماما. بيد أنه قبل عدة سنوات حدث شيء لم يكن منتظرًا ولا شكّ. لقد بدأ يطرأ على الكتب بعض التغيير، إذ لم يقاوم الناس الذين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب رغبتهم في تغيير هذا المقطع أو ذاك، لينقلوها بعد ذلك للآخرين بتكلّفهم وما أدخلوه عليها من تحويرات، فتتغير الحكايات شيئًا فشيئًا بشكل جذري. ما العمل؟ إنّ الكائن البشري لا يمكنه أن يستغني عن وضع توقيعه على قشور الأشجار، وفوق الحجارة، وعلى جدران المراحيض. وفي كثير من الأحيان إنّما يفعل ذلك ليقول إنه هناك، أي ليُعلن حضوره. يقولون إن

هذا ما ردّ به آدم، في التوراة (سفر التكوين)، حين ناداه الرب. فقد قال بطريقته، ما يضع حدودًا لفردانيّتنا. لقد قال آدم: «أنا هنا». وهذا التموضع في الزمان والمكان وَسَم وجوده ويبدو أنه أراد القول إنه سيبقى إلى الأبد. وهو أمر من الظاهر أنّ يد الزوال لم تنل منه شيئًا. كنتُ أقول، عزيزي بونْفينْ، إن الكائن البشريّ يشعر بالحاجة إلى وضع تفرّده، أي اختلافه وطابعه الفريد، في ما يقوم به. وهي حاجة كبيرة مثل الحاجة إلى الأكل والتنفس. وهذا تحديدًا ما نراه في هذه الكتب البشرية. إذ ما عاد بوسع أي واحد منهم أن يحكي الحكاية نفسها التي كُتبت في الكتاب. لقد أصبحوا كلهم كتبًا مفتوحة، حية. يتطورون مع مرور الوقت، لأنهم غير ثابتين في الورق، ويتأقلمون مع تأويل القارئ.

- إذن، هم يخونون الأصل.

- تماما. لكنّي لا أعتبر ذلك خيانة. وحتى والدك، لم يكن يرى الأمر كذلك، عزيزي بونْفينْ. هذه الكتب حيّة حقّا. وهو ما كان فيه خلاصي. لاحظ أنّي حين قدمتُ إلى هنا، التزمت (وفق نصيحة والدك) بأن أحفظ كتاب دوستويفسكي، **الجريمة والعقاب** عن ظهر قلب. ليس بنيّة روايته كما كُتب بالضبط، بل من أجل أن أستوعبه بالأساس. وهذا يعني أن أفهم ذاتي. حسنًا، يمثّل هذا الأمر مشروع حياة، ومسعًى طموحًا، ذلك أنّني بحفظي لأفعالي عن ظهر قلب إنّما أحاول أن أعرف ذاتي. وليس الأمر مقصورًا على هذا، إذ بإمكاني أن أغيّر الحكاية،

وأن أعيد صياغة ماضي حياتي ووعيي. فأتخلّص من الذنب.

- وهل تمكنتَ من ذلك؟

- ليس بشكل كامل، لكني أحرزت بعض التقدم. لقد تمكنّت من أن أنام، وهذا في حد ذاته إنجاز.

- هذا من حظك. فالشخصية الأدبية تملك هذا الإمكان.

- أي إمكان؟

- إمكان تغيير الماضي. أما نحن، شخصيات الخيال في الحياة الواقعية، فلا نملك سبيلا لتغيير الماضي. إنه مكتوب، هكذا وُضع وليس لنا إزاءه أن نفعل أي شيء.

- أنت مخطئ، عزيزي بونْفينْ. أنت مخطئ كل الخطأ. أنتم، شخصيات اللحم والدم، مثلنا تماما، نحن الشخصيات الورقية المكتوبة بحروف سوداء.

- وكيف لهذه المعجزة أن تكون ممكنة؟

- أنتم أَقْليديّون جدًّا، ومُسطّحون أكثر من اللازم. إنّكم مثل مربّع حكاية السيد إدْوين أبوت. هل قرأت هذا الكتاب، سيد بونْفينْ؟

- أيّ كتاب؟

- **الأرض المسطحة**. يصف الكتاب عالمًا ذا بُعدين شخصيّاته أشكال هندسية مسطّحة لا تدري أن هناك أبعادًا أخرى (ثلاثة

على الأقل). حسنا، بالنسبة إليهم أي شيء غير ثنائي الأبعاد يُعتبر معجزة. والحال أنّ الواقع له عدة أبعاد، وجوانب، وأبواب، ونوافذ، وأعمدة ...

- لكن، ماذا عن تغيير الماضي؟ كيف لهذه المعجزة أن تكون؟

- هو أمر بسيط جدًّا: أنتم، معشر الأَقْليديين، أُناس هذا العالم الممل الذي تعيشون فيه، تخلطون الماضي بذكرياتكم عن الماضي. إن ذكرياتكم تمثّل رؤيتكم للماضي، وليس هذا كذاك. إنّ الذكريات تتغيّر مع مرور الوقت، فهي ليست وقائع دُوّنت على الورق ووُصفت بكل دقة وصرامة. بل أمور عاطفية تتغيّر كلما تذكّرناها. أي أنّها تخضع لعملية تفكير ثانية فتتحول إلى شيء آخر، كما حدث هنا مع الكتب.

- لكنّ هذا قد يعني العيش في ماض لم يحدث، وليس حقيقيًّا.

- ليست ذكرياتنا حقيقية البتّة أو لنقل إنّها ليست حقيقيّةً بشكل مطلق، بل هي مجرد تأويل. إذ هناك دائمًا ذكريات أخرى، ومع مرور الأعوام نأخذ في النظر إلى الماضي تحت أضواء مختلفة. فنسترجع ذكرياتنا ونراها من زوايا مختلفة، حسب ما نتعلمه ووفقا لما نحس به لحظة التذكر. تصوّر، عزيزي بونْفينْ، فيلاً.

***

حكاية الفيل والعميان

- «تصور فيلاً» - قال راسكولنيكوف مرة أخرى. «وتصوّر

بعض العميان وهم يقتربون منه ليصفوه: يتحسّس الأول خرطومه فيقول إن الفيل يشبه الحيّة. ويتحسّس الثاني إحدى أرجله، فيقول إنّ الفيل مثل عمود من أعمدة معبد شيفا. ثم يمسك الآخر، وهو الأعمى الثالث، بذيله، فيظنّ الفيل شبيهًا بالحبل. ويتحسّس الرابع أذنه، فيقول إنّه أشبه ما يكون بمروحةٍ كبيرة جدا. وأما ذلك الذي يتّكئ على جسم الفيل فسيعدّه مُماثلاً للحائط. بينما سيقول السادس، ذلك الذي وضع نفسه تحت الفيل، وتحت وطأة وزنه، إنّه صنو لصديقَك بومْبو.

ونحن، يا عزيزي بونْفينْ، نتذكّر الأشياء مثل العميان وهم يتحسّسون فيلاً. تذكّر هذا الأمر لأنه قد يساعدك في يوم من الأيام. فكلّنا سوف نملك، إن لم نكن ملكنا منذ زمان، فيلاً ندرك من خلاله. وتبقى المعضلة في أن ندرك كلّ شيء. لقد فهمتُ جيّدًا، سيّدي العزيز، أن الماضي يمكن أن يكون له مستقبل كبير في انتظاره.

ثم أردف قائلاً:

- وإنّه لَبِوسعي الآن أن أهاجمك بعنف بشيء من الأدب الروسي، وهو ما يخرج من فمي بكل سهولة، لولا أنّني قرّرتُ أن أعفيك من ذلك! ها ها ها!



الفصل السابع والعشرون

حلوى بالقشدة

دخل بومْبو في غيبوبة. حدث ذلك على إثر الدور المُشين الذي لعبتُه، وما كان من إهانتي له أمام بياتريس. ولج إلى دكان حلوى وملأ فمه بكل ما استطاع من حلويات بالقشدة (كما فعلت شخصية من شخصيات ستفينسون حين أقدمت على الانتحار) فدخل في غيبوبة جرّاء ارتفاع نسبة السكر في الدم (ولم يستطع، هذه المرة، أن يحقن نفسه بجرعة الأنسولين اللازمة). ومن ثمّة، مات صديقي بومْبو.

***

تحدث الغيبوبة الناتجة عن ارتفاع نسبة السكر في الدم حين يقدم شخص مثل بومْبو على تناول عدّة حلويات بالقشدة، وفوق ذلك لا يحقن نفسه بجرعة الأنسولين اللازمة. لقد مات بومْبو نتيجة الغْلوكون المفرط. مات لأن كل شيء بداخله كان شديد الحلاوة (مع أن الحلاوة لم تكن هي حالة روحه). فهل ثمّة موت أغرب من هذا الموت؟ أيّمكن أن يموت المرء من الحلاوة؟

***

في المستشفى، كان بومْبو ما يزال في غيبوبة، فتوجهت نحو المصعد لأصل إلى الطابق الذي يرقد فيه. وبما أنني أبديتُ بعض التردد في ركوب المصعد، قال لي رجل وهو يمسك بالباب:

- ادخل. ثمّة مُتّسع لكلينا وزيادة، فهذا المصعد قد صُنع لرفع ثمانية أشخاص.

وبما أنني تردّدت، أردف:

- لا تخش شيئًا. إنه يتحمل وزن 500 كيلو.

- بصراحة، أفضّل أن أصعد عبر السلاليم، لأن ضميري مثقل أكثر من اللازم.

كان أول شخص رأيته في غرفة المستشفى هو بياتريس. واستطعتُ أن أدرك، من خلال عينيها الكستنائيتين (حتى عندما تغمضهما)، كم كانت تحبه هو، بومْبو.

كانت تبكي، ولقد ذكّرتني يداها الدقيقتان بقصيدة للشاعر كامنْغزْ، كُتبت كلها بحروف دقيقة:

«حتى المطر له يداك الدقيقتان».

***

لا أذكر قطّ أنّني تحمّلت جوًّا ثقيلاً كذاك الذي خيّم على تلك الغرفة. فحتى بومْبو لم يكن يُماثله ثِقلاً.

بعد يومين، سهرت بجوار الميت. لم يكن أعز صديق لي يضع

زيتًا على شعره ولا كان بإمكانه أن يمرّر يده على رأسه. ولأنّها أوّل مرة أرى فيها شخصًا ميتًا فقد تأثّرت لذلك: كان وجهه صارمًا، تلك الصرامة التي يُبديها حين يسخرون منه. لكنّي كنتُ أعرف أنّه بداخله يبكي.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نهاية

عمري الآن 72 عامًا. قرأتُ مرة أخرى هذه الحكاية التي كتبتُها بعد أن بلغت سن الثالثة عشر ورويت فيها، بكل دقّة، ما جرى في مرحلة شبابي. لقد ارتكبت طوال حياتي عدة أخطاء، والآن بقي لي، كما هو شأن راسكولنيكوف، أن أنظر من جديد إلى حياتي الماضية وأن أحاول فهمها كما يحاول أعمى أن يحدس فيلاً، ومن يدري ربما أتسامح مع ذاتي وأتعلم التعايش مع السيد هايد الذي يستأجر شقة داخل رأسي. عندما أفكر في بومْبو، أبكي. لكن حينئذ يكون من الصعب القيام بالأشياء الصحيحة.

تابعت القراءة بشكل قسريّ وأظن أنني وجدتُ والدي في نهاية الأمر. ليس لأنني قرأتُ العلّية بكاملها (فقد قرأت أكثر من ذلك، أكثر بكثير)، بل لأنني أصبحتُ أنا هو والدي نفسُه.

لم أنس قطّ كلمات بومْبو (صديقي بومْبو!):

«دامت أول قبلة لي بضع ثوان، لكنني أظن أن شفاهنا لن تفترق إلى حين نموت»، قال لي بعد تلك القبلة التي تلقاها من بياتريس.

وكان ما يزال يحلّق في الهواء بفضل ما تبقى من رضاب فمها عالقا على شفتيه.

عمري الآن 72 عاما. أنظر إلى أبنائي وإلى أحفادي وأفكر أي حكايات سيخوضون غمارها وما الذي سيكون بإمكانهم أن يحكوه في يوم من الأيام. لأن الإنسان مُشكَّل من تلك الحكايات، وليس من الجينات والعضلات والعظام. حكايات.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

أفونسو كروش

الكُتب التي التهمت والدي

فيفالْدو بونْفين مُوظّفٌ حكوميٌّ يعيش حياةً رتيبةً ومُملّةً في مكتبه بمصلحة الضرائب؛ لذا يأخذ معه بعض الروايات ليقرأها خلسة. ذات يوم، وبينما كان يتظاهر بالعمل، انغمس في القراءة واختفى من هذا العالم بين ثنايا الكتب. هذه هي حكايته الحقيقية كما يرويها ابنه إلياس بونْفين، الذي يخرج بحثا عن والده عبر أُمّهات كتب الأدب الكلاسيكي مثل **جزيرة الدكتور مورو** و**دكتور جيكل ومستر هايد** (روبرت لويس ستفنسون)، **الجريمة والعقاب** (فيودور دوستويوفسكي)، و**فهرنهايت 451** (راي برادبري). فهل يوافقه الحظ في هذه الرحلة الذهنية التي يواجه خلالها شتّى أنواع المخلوقات الخياليّة ونماذج مختلفة من المجرمين والشخصيات الأدبية؟

الناشر

ISBN: 978-9938-24-012-2



